جِحا وشِلّتُه

قصصٌ شعبيّةٌ منَ الشّرقِ





كتابةُ مروان الأحدَب
رسومُ مايا مَجدَلاني

سمير

جِحا وشِلّتُه

قصصٌ شعبيّةٌ منَ الشّرقِ

كتابةُ مروان الأحدَب
رسومُ مايا مَجدَلاني

ترجمَته منَ اللّغةِ الفرنسيّةِ
إليسار صانع أَسمَر

سمير

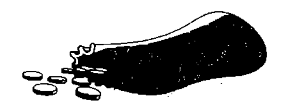

جحا وشلّته
قصص شعبيّة من الشّرق

نُشِرَ للمرّة الأولى باللّغة الفرنسيّة لدى سمير دار نشر، عام 2012 تحت عنوان: Géha et compagnie.
صياغة مستحدثة عن Antoine Chami, *Les contes de l'Orient* ©مكتبة سمير 1997.

تصميم: پولا عبده حنّا
إخراج فنّيّ: جووانّا المير – مغالي أ. سَفَر عبّود
إدارة النّشر: مروان عبده حنّا

سنّ الفيل، الجسر الواطي
ص. ب. 55542 بيروت، لبنان
www.samirediteur.com
ISBN 978-9953-31-466-2

جِحا يَبيعُ حِمارَهُ



عَن طُرفَةٍ لِنَصرِ الدّينِ خوجَة

1

كانَت مَدينَةُ الخَليفَةِ هارونَ الرَّشيدِ، تَعُدُّ مِن بَينِ سُكّانِها رَجُلًا طَيِّبًا يُدعى جِحا، يَعيشُ مَعَ زَوجَتِهِ فاطِمَةَ في كوخٍ مُتَواضِعٍ. كانَت ثَروَةُ جِحا حِمارًا يَكُدُّهُ في العَمَلِ مِنَ الصَّباحِ حَتّى المَساءِ لِكَي يُحَصِّلَ مَعيشَتَهُ وَمَعيشَةَ زَوجَتِهِ.

في المَدينَةِ صَيفًا، كانَت حَرارَةُ الشَّمسِ تَشتَدُّ، وَيَنابيعُ الماءِ النّادِرَةُ تَنضُبُ. وَكانَ سُكّانُ المَدينَةِ

مُتَعَوِّدينَ عَلى ارتِيادِ النَّهرِ حامِلينَ أَوعِيَةً كَبيرَةً، يَملَأونَها ثُمَّ يَحفَظونَها في أَماكِنَ بارِدَةٍ مِن مَنازِلِهِم، لِكَي يَتَوَفَّرَ لَدَيهِم ما يَشرَبونَهُ لِبِضعَةِ أَيّامٍ. وَلكِن، إذا فاجَأَ العَطَشُ رَجُلًا في الشّارِعِ، فَما كانَ عَلَيهِ إلّا أَن يَتَحامَلَ عَلى نَفسِهِ، وَيَصبِرَ مُنتَظِرًا أَن يَحينَ وَقتُ العَودَةِ إلى بَيتِهِ كَي يَرتَوِيَ.

مُلاحِظًا ذلِكَ، خَطَرَت لِجِحا فِكرَةٌ. فَقَد عَلَّقَ عَلى ظَهرِ حِمارِهِ جَرَّتَينِ مِنَ الفَخّارِ، وَباتَ فَجرَ كُلِّ يَومٍ، مَعَ بُزوغِ النَّهارِ، يَسوقُ حِمارَهُ إلى النَّهرِ، حَيثُ يَملَأُ الجَرَّتَينِ حَتّى الشَّفَةِ، وَيجولُ بَعدَ ذلِكَ في أَرجاءِ المَدينَةِ صائِحًا:

– ماءٌ عَذبٌ! عَذبٌ جِدًّا! مَن يُريدُ ماءً عَذبًا؟

كانَ السُّكّانُ العِطاشُ كُلُّهُم يَهرَعونَ إلَيهِ فَورًا، وَفي أَيديهِم أَقداحٌ فارِغَةٌ. لَم يَكُنْ عَلى جِحا إلّا أَن يَملَأَها. وَحالَما يَرتَوونَ، يُبارِكونَ المُنقِذَ لِمَجيئِهِ إلَيهِم بِالنَّجدَةِ.

بِفَضلِ هذِهِ التِّجارَةِ البَسيطَةِ، استَطاعَ جحا أَن يَكسِبَ رِزقَهُ. لكِنَّ هذا العَمَلَ لَم يَكُنْ مُريحًا قَطُّ. فَقَد كانَتِ الجَرَّتانِ تَفرَغانِ بِأَسرَعَ مِنَ المُتَوَقَّعِ، مُلزِمَتَينِ الرَّجُلَ المِسكينَ بِالذَّهابِ وَالإيابِ مِن دونِ تَوَقُّفٍ في الشَّوارِعِ المُؤَدِّيَةِ إلى النَّهرِ. وَفي نِهايَةِ النَّهارِ، عِندَما يَعودُ جِحا إلى بَيتِهِ، يَكونُ مُنهَكَ القِوى، فَيَرتَمي عَلى فِراشِهِ المَصنوعِ مِنَ القَشِّ، وَيَنامُ فَورًا.

وَكانَت فاطِمَةُ أيضًا، تَعيشُ أَيّامًا مُضنِيَةً، وَهِيَ تَزرَعُ الحَديقَةَ الصَّغيرَةَ حَولَ الكوخِ، وَتَبيعُ جُزءًا مِمّا تَجنيهِ مِن خُضَرٍ في السّوقِ الأَقرَبِ.

وَمَعَ الوَقتِ، وَبِفَضلِ العَمَلِ الشّاقِّ وَالحِرمانِ، استَطاعَ الزَّوجانِ أَن يَدَّخِرا مَبلَغًا صَغيرًا مِنَ المالِ لِلأَيّامِ العَصيبَةِ.



2

ذاتَ مَساءٍ، قالَ جحا لِزَوجَتِهِ:

– فاطِمَةُ، حِمارُنا بَدَأَ يَشيخُ. وَقَريبًا، لَن يَكونَ قادِرًا عَلى القِيامِ بِمُهِمّاتِهِ اليَومِيَّةِ. أُريدُ أَن آخُذَهُ إلى السّوقِ، وَأَبيعَهُ كَي أَشتَرِيَ حِمارًا آخَرَ شابًّا.

أَمّا فاطِمَةُ، الَّتي كانَت تَتَمَتَّعُ بِفِكرٍ نَيِّرٍ، فَعَقَدَت حاجِبَيها قائِلَةً:

– جِحا، لا أَعتَقِدُ أَنَّها فِكرَةٌ صائِبَةٌ. ما زالَ هذا

الحَيَوانُ قَوِيًّا وَقادِرًا عَلى خِدمَتِنا سَنَواتٍ طِوالًا. ثُمَّ هَل نَسيْتَ أَنَّ الحِمارَ الشّابَّ باهِظُ الثَّمَنِ؟

– وَلكِن، بِفَضلِ اللّهِ، لَدَينا مالٌ مُدَّخَرٌ!

– هذا المالُ مَحفوظٌ لِأَوقاتِ الشِّدَّةِ. أَليسَ هذا ما اتَّفَقْنا دائِمًا عَلَيهِ؟

لَم يَجرُؤِ الزَّوجُ عَلى مُعارَضَةِ زَوجَتِهِ. وَلكِنَّهُ تِلكَ اللَّيلَةَ، فيما كانَت نائِمَةً، نَهَضَ مِنَ السَّريرِ، وَاستَولى عَلى المالِ المُدَّخَرِ، وَدَسَّهُ في جَيبِهِ.

في صَباحِ اليَومِ التّالي، وَدَّعَ زَوجَتَهُ كَالعادَةِ، وَسَلَكَ الطَّريقَ بِاتِّجاهِ النَّهرِ. وَما إن أَصبَحَ بَعيدًا عَن نَظَرِ فاطِمَةَ حَتّى بَدَّلَ وُجهَتَهُ قاصِدًا السّوقَ، حَيثُ تَقَرَّرَ، في ذلِكَ اليَومِ، انعِقادُ مَعرِضٍ ضَخمٍ يَجمَعُ بائِعي المَنطِقَةِ كُلَّهُم.

عِندَما وَصَلَ إلى السّاحَةِ، كانَتِ الزَّحمَةُ في أَوجِها. قَرَوِيّونَ جَاؤوا، مِن مُدُنٍ مُجاوِرَةٍ، يَعرِضونَ غَلّاتِهِم عَلى

بائِعينَ صِغارٍ جَوّالينَ. أَمّا مُرَبّو الماشِيَةِ، فَكانوا يُخالِطونَ بائِعي الدَّواجِنِ وَالخُيولِ. وَكانَ رَجُلٌ بَينَهُم قَد جَمَعَ حَميرًا في حَظيرَةٍ صَغيرَةٍ، فَاقتَرَبَ مِنهُ جحا وَقالَ لَهُ:

- أَيُّها الرَّجُلُ الطَّيِّبُ، أَوَدُّ أَن تَبيعَ الحَيَوانَ الَّذي مَعي. وَالسِّعرُ الَّذي تَحصُلُ عَلَيهِ، أُضيفُ إِلَيهِ مَبلَغًا آخَرَ كَي أَشتَرِيَ مِنكَ حِمارًا شابًّا.

بَعدَ أَن قَيَّمَ البائِعُ، لِبُرهَةٍ، الشَّخصَ الَّذي عَرَضَ عَلَيهِ الصَّفقَةَ، مَنَحَهُ مُوافَقَتَهُ. ثُمَّ أَدخَلَ الحَيَوانَ إِلى الحَظيرَةِ، حَيثُ كانَت حَميرُ أُخرى تَنتَظِرُ أَن تُباعَ، وَقالَ لِجحا:

- عُدْ في نِهايَةِ الصَّبيحَةِ، فَتَكونَ الصَّفقَةُ قَد تَمَّت. وَعِندَئِذٍ تَستَطيعُ أَن تَشتَرِيَ ما شِئْتَ مِنَ الحَميرِ.

شَكَرَ جحا البائِعَ بِحَرارَةٍ، وَذَهَبَ لِيَستَريحَ، عَلى مَقرُبَةٍ مِنَ السّوقِ، عِندَ جِذعِ شَجَرَةٍ كانَت تُقَدِّمُ لِزائِريها كُلَّ بُرودَةِ أَوراقِها.

3

كانَ البائِعُ تاجِرًا مُحَنَّكًا، يُجيدُ تَقديمَ بِضاعَتِهِ في أَبهى حُلَّةٍ. وَمَعَ حُلولِ الظُّهرِ، كانَ قَد نَجَحَ تَقريبًا في بَيعِ كُلِّ الحَيَواناتِ المَوضوعَةِ في حَظيرَتِهِ. وَلَم يَبقَ سِوى حِمارِ جِحا العَجوزِ، الَّذي لَم يَرغَبْ أَحَدٌ فيهِ. عِندَئِذٍ، قَرَّرَ أَن يَستَخدِمَ كُلَّ ما أوتِيَ مِن حيلَةٍ. فَاعتَلى صُندوقَ السَّفَرِ الكَبيرَ الخاصَّ بِهِ، وَراحَ يَجمَعُ النّاسَ صائِحًا:

– أَيُّها النّاسُ الطَّيِّبونَ، اقترِبوا! تعالَوا وتَأَمَّلوا هذا الحِمارَ الجَميلَ! هَل رَأَت أَعيُنُكم مِثلَ هذا الحَيَوانِ مِن قَبلُ؟ السَّنَواتُ زادَتهُ قُوَّةً بِحَيثُ أَصبَحَ قادِرًا عَلى القِيامِ بِأَكثَرِ الأَعمالِ مَشَقَّةً! بِاللّهِ عَلَيكُمُ انظُروا إلى عافِيَةِ عُرقوبَيهِ! وَكَثافَةِ وَبَرِهِ! وَبَريقِ عَينَيهِ! إنَّ سُلطانًا وَحدَهُ جَديرٌ بِامتِلاكِ خادِمٍ مُماثِلٍ! آهٍ! فَقَط لَو كانَ هذا الحِمارُ لي، لَكُنْتُ، مِن دونِ شَكٍّ، أَسعَدَ الرِّجالِ!

كانَ المارَّةُ قَد تَجَمَّعوا حَولَ الحَيَوانِ، وَأَخَذوا يَتَأَمَّلونَهُ بِاهتِمامٍ أَكثَرَ فَأَكثَرَ. وَلَم يَتَرَدَّدْ بَعضُهُم في مُلامَسَةِ وَبَرِهِ، وَتَحَسُّسِ حَنايا أَعضائِهِ المُتَناسِقَةِ. وَبَينَهُم، كانَ جِحا الَّذي اجتَذَبَهُ كَذلِكَ خِطابُ البائِعِ. فَقَدِ اقتَرَبَ كَثيرًا مِنَ الحَيَوانِ، وَراحَ يَتَفَحَّصُ بِدِقَّةٍ كُلَّ قِسمٍ مِن جَسَدِهِ، وَقالَ في نَفسِهِ:

«بِرَبِّي، الرَّجُلُ مُحِقٌّ. فَالعَضَلاتُ قَوِيَّةٌ، وَالحُلَّةُ مُذهِلَةٌ،



وَالعَينُ بَرّاقَةٌ. هذا الحِمارُ قَد قُدَّ مِنَ الصَّخرِ. أَعتَقِدُ أَنَّني لَم أَرَ أَجمَلَ مِنهُ قَطُّ!»

في ذلِكَ الوَقتِ، كانَ البائِعُ يُتابِعُ مَديحَهُ:

- كانَ يَنبَغي أَن يولَدَ حِصانًا، أُؤَكِّدُ لَكُم هذا! لَدى رُؤيَتِهِ يَخِبُّ، قَد يُخالُ أَنَّهُ مِن أَجوَدِ الأَحصِنَةِ الأَصيلَةِ! عَلى مَطِيَّةٍ كَهذِهِ نَستَطيعُ أَن نَغزُوَ العالَمَ!

إرتَفَعَت بَينَ الحَشدِ تَمتَمَةُ رِضًى. كانَ الجَميعُ يَمدَحُ الحَيَوانَ. عِندَئِذٍ أَعلَنَ البائِعُ:

- أُحَدِّدُ المَزادَ بِثَلاثَةِ دَنانيرَ!

كانَت تِلكَ هِيَ القيمَةَ الَّتي يُساويها عادَةً حِمارٌ عَجوزٌ. لِلحالِ، وَسطَ الحَشدِ، صَرَخَ رَجُلٌ طَويلٌ ناحِلٌ:

- أَنا أَشتَري!

فَقالَ جِحا في نَفسِهِ: «ثَلاثَةُ دَنانيرَ فَقَط، لِحَيَوانٍ كَهذا؟ أَبَدًا!» ثُمَّ صاحَ بِالبائِعِ:

– أَنا أَدفَعُ أَربَعَةً!

– وَأَنا، خَمسَةً! قالَتِ امرَأَةٌ عَجوزٌ بِجانِبِهِ.

– سِتَّةً! زايَدَ الطَّويلُ النّاحِلُ.

– سَبعَةً! قالَ جِحا.

– ثَمانِيَةً! قالَتِ المَرأَةُ العَجوزُ بِحَزم.

– تِسعَةَ دَنانيرَ! وَهذا أَقصى ما أَدفَعُهُ! صاحَ الطَّويلُ النّاحِلُ.

– أَدفَعُ عِشرينَ دينارًا! أَعلَنَ جِحا مُنتَصِرًا.

حَلَّ الصَّمتُ فَجأَةً. فَتَحَتِ المَرأَةُ العَجوزُ عَينَينِ كَبيرَتَينِ. كادَ الطَّويلُ النّاحِلُ أَن يَقَعَ عَلى قَفاهُ. أَمّا باقي الحَشدِ فَوَجَّهَ أَنظارَهُ نَحوَ جِحا. ثُمَّ سَأَلَ البائِعُ:

– مَن يَزيدُ؟

بِما أَنَّ أَحَدًا لَم يَتَفَوَّهْ بِكَلِمَةٍ، تابَعَ البائِعُ:

– رَسا المَزادُ عَلى هذا الرَّجُلِ السَّعيدِ عِندَ عِشرينَ

دينارًا فَقَط!...الدَّفعُ فورِيٌّ حَتمًا.

صَفَّقَ الحَشدُ بِكامِلِهِ لِلشّاري، وَبَعدَ لَحَظاتٍ، عادَ جِحا إلى بَيتِهِ عَلى ظَهرِ الحَيَوانِ، راضِيًا تَمامًا.

4

كانَت فاطِمَةُ تَحرُثُ الحَديقَةَ، عِندَما رَأَت زَوجَها عائِدًا، وَسُرعانَ ما سَأَلَتهُ مُستَغرِبَةً:

– ما الأَمرُ؟ الشَّمسُ ما زالَت في كَبِدِ السَّماءِ. هَل أَنتَ مُتعَبٌ؟!

– عَزيزَتي فاطِمَةَ، تَأَمَّلي قَليلًا الحِمارَ الجَديدَ الَّذي اشتَرَيْتُهُ لِلتَّوِّ.

نَظَرَتِ المَرأَةُ إلى الحَيَوانِ، ثُمَّ إلى زَوجِها.

- حِمارٌ جَديدٌ؟ وَلكِن أَينَ هُوَ؟

أَجابَ جِحا ضاحِكًا:

- تَحتَ مُؤَخِّرَتي، هَيّا! ما رَأيُكِ؟

أَجابَت فاطِمَةُ بِذُهولٍ:

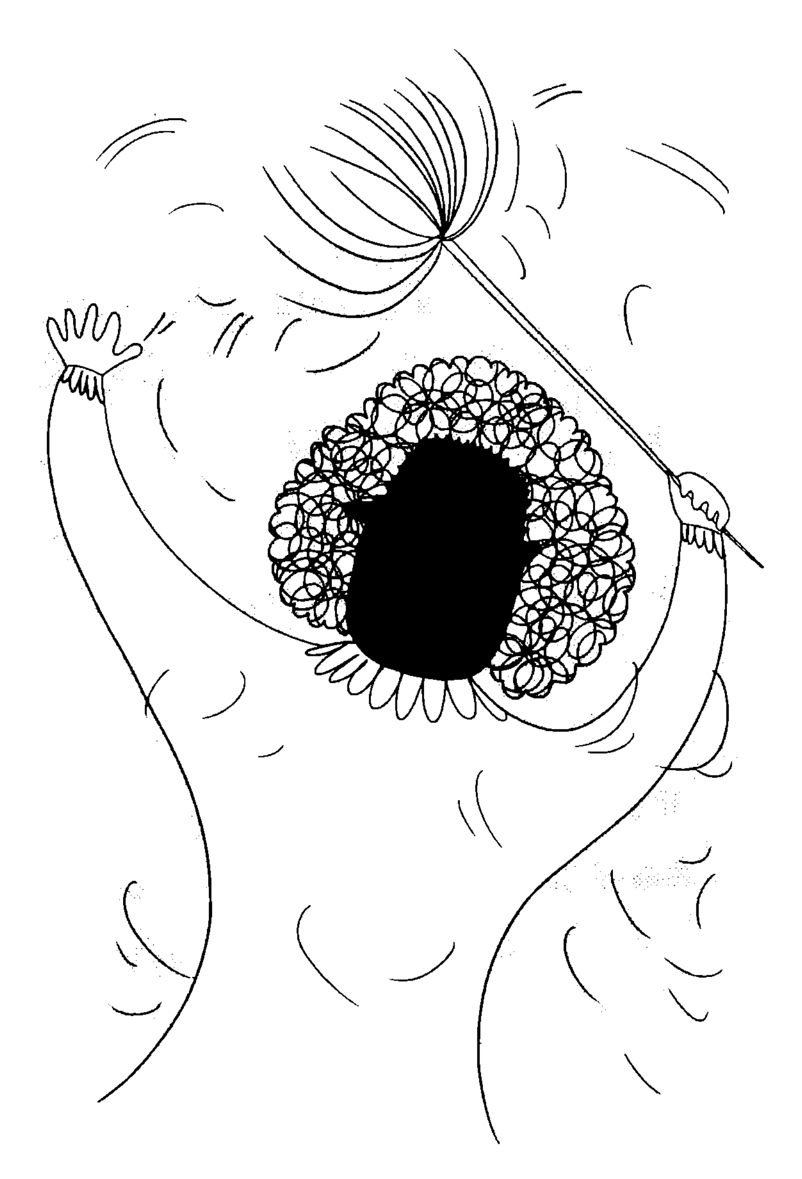
- لا أَعرِفُ ماذا أَقولُ! أَنتَ تَجلِسُ حَقًّا عَلى ظَهرِ حِمارٍ، لكِنَّ هذا كانَ دائِمًا لَنا!

عِندَئِذٍ قَفَزَ جِحا عَن مَطِيَّتِهِ وَاقتَرَبَ مِن زَوجَتِهِ، فَقالَ بِجِدِّيَّةٍ أَكبَرَ:

- فاطِمَةُ، أَعرِفُ أَنَّكِ امرَأَةٌ بَسيطَةٌ قَليلًا، وَلكِن أَطلُبُ مِنكِ أَن تُظهِري، وَلَو لِمَرَّةٍ، قَليلًا مِنَ الوَعيِ. أُنظُري إِلى هذا الحَيَوانِ كَم هُوَ جَميلٌ! أَلَم أُحَقِّقْ بِشِرائِهِ صَفقَةً جَيِّدَةً؟ ما رَأيُكِ؟

حَدَّقَتِ المَرأَةُ في زَوجِها بِاهتِمامٍ، ثُمَّ قالَت لَهُ:

- جِحا، هَل تَسخَرُ مِنّي؟ كَيفَ لَكَ أَن تَشتَرِيَ هذا



الحِمارَ ما دامَ أَصلًا لَنا؟

– كانَ لَنا، عَزيزَتي فاطِمَةَ. هذا يُحدِثُ فَرقًا كَبيرًا.

وَلكِنَّني هذا الصَّباحَ بِعْتُهُ، وَمِن ثُمَّ اشتَرَيْتُهُ مُجَدَّدًا.

وَبِما أَنَّها لَم تَفهَمْ، شَرَحَ لَها المَسأَلَةَ بِالتَّفصيلِ، وَما كادَ يُنهي كَلامَهُ حَتّى سَأَلَتهُ:

– وَماذا بَقِيَ مِنَ العِشرينَ دينارًا الَّتي تَعِبْنا في ادِّخارِها؟

– في الحَقيقَةِ، لا شَيءَ. كانَ لا بُدَّ مِن إنفاقِ هذا المَبلَغِ لِشِراءِ حَيَوانٍ جَميلٍ كَهذا.

– لِكِنَّ الحِمارَ كانَ لَنا، يا لَكَ مِن أَحمَقَ! العِشرونَ دينارًا الَّتي أَنفَقْتَها، كانَ يَجِبُ أَن تَعودَ إلَيكَ! ما كانَ عَلَيكَ أَن تَدفَعَ شَيئًا!

بَقِيَ جحا بِضعَ لَحَظاتٍ صامِتًا. ثُمَّ عَقَدَ حاجِبَيهِ وَراحَ يُفَكِّرُ. لَقَد فَكَّرَ مَلِيًّا بِمَنطِقِ زَوجَتِهِ، وَلكِنَّهُ لَم

يَتَوَصَّلْ إلى فَهمِهِ.

– ماذا تَنتَظِرُ كَي تَذهَبَ فَتَعثُرَ عَلى هذا البائِعِ! يَجِبُ أَن يُعيدَ إلَينا المالَ الَّذي سَرَقَهُ مِنّا، بِأَيِّ ثَمَنٍ!

وَبِما أَنَّهُ لَم يَتَحَرَّكْ، أَمسَكَت مِكنَسَتَها، وَهَزَّتها بِغَضَبٍ شَديدٍ أَمامَهُ.

– إذهَبْ فَورًا، وَإلّا أَشبَعْتُكَ ضَربًا!

كانَ جِحا يَخشى غَضَبَ زَوجَتِهِ أَكثَرَ مِن أَيِّ شَيءٍ آخَرَ، فَرَكِبَ حِمارَهِ، وَاتَّجَهَ فَورًا إلى السّوقِ. في الطَّريقِ، تَضارَبَتِ الأَفكارُ في ذِهنِهِ.

«لِماذا عَلَيَّ أَن أَستَرجِعَ العِشرينَ دينارًا مِنَ البائِعِ؟ كانَ عَلَيَّ أَن أَدفَعَ ثَمَنَ الحِمارِ الَّذي باعَني إيّاهُ...»

أَبعَدَ بِقَليلٍ، تَرَجَّلَ عَن مَطِيَّتِهِ، كَي يُفَكِّرَ بِراحَةٍ أَكثَرَ.

«ماذا سَيَفعَلُ عِندَما سَأَطلُبُ مِنهُ المالَ؟ لا بُدَّ مِن أَن يَطرُدَني بِضَرَباتِ عَصًا!»

مَكَثَ بِضعَ لَحَظاتٍ يُفَكِّرُ، ثُمَّ رَكِبَ الحِمارَ مُجَدَّدًا.

«عَجَبًا! عَلى أَيِّ حالٍ، ضَرَباتُ البائِعِ أَفضَلُ مِن ضَرَباتِ زَوجَتي!»

لكِنَّهُ عِندَما وَصَلَ إلى السّوقِ، كانَ البائِعُ قَدِ اختَفى.

«أَخيرًا، هكَذا أَفضَلُ. لَو قَبِلَ أَن يُعيدَ إلَيَّ المالَ، لَطالَبَ حَتمًا بِاستِردادِ حَيَوانِهِ!»

عادَ جِحا إلى بَيتِهِ أَكثَرَ رِضًى مِن أَيِّ وَقتٍ مَضى.

حَميدٌ وَالعِفريتُ



عَن حِكايَةِ الصَّيّادِ وَالعِفريتِ مِن كِتابِ أَلفِ لَيلَةٍ وَلَيلَةٍ.

1

كانَ حَميدٌ صَيّادًا عَجوزًا، يَعيشُ مَعَ زَوجَتِهِ وَأَبنائِهِ الثَّلاثَةِ، في كوخٍ صَغيرٍ بِالقُربِ مِنَ الشّاطِئِ.

فَجرَ كُلِّ يَومٍ، يَقصِدُ الشاطِئَ كَي يَرمِيَ شِباكَهُ في البَحرِ. وَعِندَ المَساءِ، يَعودُ إلى بَيتِهِ وَسِلالُهُ مَلأى بِالأَسماكِ. كانَ قِسمٌ مِنَ الصَّيدِ يُعَدُّ غِذاءً لِعائِلَتِهِ، وَالقِسمُ الآخَرُ يُباعُ في سوقِ أَقرَبِ مَدينَةٍ، وَما يَكسِبُهُ مِن مالٍ يَسمَحُ لَهُ بِتَأمينِ الحاجاتِ الأَوَّلِيَّةِ. وَعَلى الرَّغمِ

مِن فَقرِهِ، كانَ هذا الصَّيّادُ رَجُلًا سَعيدًا.

إلّا أَنَّهُ مَرَّ بِظَرفٍ حَرِجٍ لِعِدَّةِ أَيّام، فَقَد رَمى شِباكَهُ مِرارًا عَلى امتِدادِ الشّاطِئِ، وَلَم تَعلَقْ بِها أَيُّ سَمَكَةٍ. وَكَأَنَّ البَحرَ كانَ خالِيًا مِنَ الكائِناتِ الحَيَّةِ.

ذاتَ صَباحٍ، وَلِعَجزِهِ عَنِ التَّحَمُّلِ، رَمى عُدَّتَهُ أَرضًا، وَارتَمى جاثِيًا عَلى الرَّملِ رافِعًا ذِراعَيهِ نَحوَ السَّماءِ، وَصَرَخَ:

– رَبّي، يا مَن لَسْتَ إلّا طيبَةً وَعدلًا، أَشفِقْ عَلَيَّ أَنا الرَّجُلَ المِسكينَ! ها إِنَّ أَكثَرَ مِن أُسبوعٍ قَد مَرَّ، وَأَنا أَعودُ إِلى بَيتي وَسِلالي فارِغَةٌ! زَوجَتي وَأَولادي يَتَضَوَّرونَ جوعًا! أَرجوكَ رَبّي أَن تَجعَلَ الصَّيدَ اليَومَ وَفيرًا!

مَعَ نِهايَةِ صَلاتِهِ، نَهَضَ حَميدٌ عَنِ الأَرضِ، فَرَمى شِباكَهُ في الماءِ، وَانتَظَرَ بَضعَ دَقائِقَ. عِندَما جَرَّها

إلى الشاطِئِ، بَذَلَ مَجهودًا كَبيرًا لِشِدَّةِ ثِقلِها. وَما إن رَأى مُحتَواها حَتّى صاحَ بِذُهولٍ. كانَت أَسماكٌ مِن كُلِّ الأَحجامِ وَالأَلوانِ تَتَرَعَّصُ في الهَواءِ الطَّلقِ! إغرَورَقَت عَينا حَميدٍ، وَصَرَخَ وَهوَ يَنظُرُ نَحوَ السَّماءِ:

- شُكرًا رَبّي عَلى الـمُعجِزَةِ الَّتي حَقَّقْتَها! بِفَضلِكَ، سَيَكونُ لِعائِلَتي ما تَأكُلُهُ طَوالَ الأُسبوعِ!

مِن دونِ أَن يُضَيِّعَ ثانِيَةً، شَرَعَ يَملَأُ سِلالَهُ، سَمَكَةً تِلوَ أُخرى. لِكِنَّهُ في مُنتَصَفِ العَمَلِيَّةِ، تَوَقَّفَ فَجأَةً.

كانَ في إحدى الشِّباكِ قارورَةٌ مَكسُوَّةٌ بِالطُّحلُبِ.



2

أَمسَكَ حَميدٌ القارورَةَ فَتَفَحَّصَها وَهوَ يَقولُ في نَفسِهِ:

«غَريبٌ! يَبدو مِن سَماكَةِ الطُّحلُبِ، أَنَّ القارورَةَ تَقبَعُ في الماءِ مُنذُ زَمَنٍ بَعيدٍ جِدًّا. هَل قُدِّرَ لي أَن أَكونَ أَنا مَن يَعثُرُ عَلَيها؟»

وَهوَ يَتَفَحَّصُها عَن كَثَبٍ، رَأى زَركَشَةً غامِضَةً نُقِشَت عَلى الزُّجاجِ. كَما لاحَظَ أَنَّ سِدادَةَ القارورَةِ مَختومَةٌ بِالشَّمعِ، فَارتَسَمَت عَلى شَفَتَيهِ ابتِسامَةٌ.

«لا شَكَّ في أَنَّها تَحتَوي عَلى شَيءٍ ثَمينٍ جِدًّا. سَأَذهَبُ فورًا كَي أُقَدِّمَها لِلسُّلطانِ، لَعَلَّهُ يُكافِئُني عَلى مُبادَرَتي.»

كانَ حَميدٌ يَهُمُّ بِالذَّهابِ عِندَما غَلَبَ عَلَيهِ الفُضولُ، فَهَزَّ القارورَةَ أَوَّلًا مُحاوِلًا أَن يَعرِفَ مُحتَواها. لكِنَّ ذلِكَ لَم يُفضِ إلى شَيءٍ. فَأَخَذَ عِندَئِذٍ سِكّينَهُ، وَنَزَعَ بِها السِّدادَةَ. وَإِذا بِدُخانٍ كَثيفٍ أَبيَضَ يَنبَعِثُ مِنَ القارورَةِ، وَيَتَصاعَدُ في الأَجواءِ. أَخَذَتِ الصَّيّادَ الرِّعدَةُ، فَتَرَكَ القارورَةَ، وَوَضَعَ يَدَيهِ عَلى وَجهِهِ، إلّا أَنَّ ضَحِكًا راعِدًا جَعَلَهُ يَفتَحُ عَينَيهِ.

كانَ عِفريتٌ ضَخمٌ يَتَمَوَّجُ فَوقَهُ مُحَدِّقًا بِهِ، ذِراعاهُ مُكَتَّفَتانِ عَلى الصَّدرِ، وَنَظرَتُهُ مُتَوَهِّجَةٌ. ظَنَّ حَميدٌ أَنَّ ساعَتَهُ الأَخيرَةَ قَد حَلَّت، فَارتَمى عَلى الأَرضِ مِن دونِ أَن يَجرُؤَ عَلى الحِراكِ.

قالَ العِفريتُ:

- أَيُّها الـمَخلوقُ البائِسُ! أَدِّ صَلاتَكَ الأَخيرَةَ لِأَنَّكَ سَتَموتُ!

تَحَلّى حَميدٌ بِشَيءٍ مِنَ الشَّجاعَةِ، وَتَمَكَّنَ مِنَ القَولِ:

- أَيُّها العِفريتُ الفائِقُ القُدرَةِ، لِماذا عَلَيَّ أَن أَموتَ؟ أَلَم أُحَرِّرْكَ مِن هذِهِ القارورَةِ؟

- لَيسَ هذا بِسَبَبٍ وَجيهٍ كَي أَترُكَكَ تَحيا!

وَلكِن، بَعدَ بُرهَةٍ، أَطلَقَ الشَّبَحُ الكَلِماتِ الآتِيَةَ:

- حَسَنًا. بِكُلِّ ما لَدَيَّ مِن طيبَةٍ، قَد أُقَدِّمُ لَكَ مَعروفًا.

شَعَرَ حَميدٌ بِبَصيصِ أَمَلٍ، فَقالَ في نَفسِهِ:

«لَيسَ هذا الـمَخلوقُ شِرّيرًا كَما يَبدو عَلَيهِ.»

تابَعَ العِفريتُ قائِلًا:

- وَلكِن، قَبلَ هذا، قُلْ لي كَيفَ تَوَصَّلْتَ إلى فَتحِ القارورَةِ؟

شَرَحَ الصَّيّادُ لَهُ الأَمرَ، ثُمَّ صَمَتَ مُنتَظِرًا رَدَّ فِعلِهِ؟

– حَسَنًا . فَهِمْتُ. لَقَد حَدَّثْتُكَ عَن مَعروفٍ، إلَيكَ بِهِ: بِكُلِّ طيبَتي، أَسمَحُ لَكَ بِاختِيارِ الطَّريقَةِ الَّتي سَتَموتُ بِها .

شَعَرَ حَميدٌ بِأَنَّ عالَـمَهُ يَنهارُ، وَمَعَ ذلِكَ حافَظَ عَلى هُدوئِهِ وَرَدَّ قائِلًا:

– أَيُّها العِفريتُ، أَشكُرُكَ عَلى هذا الـمَعروفِ العَظيمِ، وَسَأُعلِمُكَ حالًا بِاختِياري، وَلكِن قَبلَ هذا ، هَل أَستَطيعُ أَن أَطرَحَ عَلَيكَ سُؤالًا؟

– ما هُوَ؟

– أُحِبُّ أَن أَعرِفَ لِماذا كُنْتَ في هذِهِ القارورَةِ.

حَدَّقَ العِفريتُ في الصَّيّادِ، ثُمَّ قالَ:

– حَسَنًا ، يَحِقُّ لِأَيِّ رَجُلٍ مُشرِفٍ عَلى الـمَوتِ مَعرِفَةُ السَّبَبِ. إجلِسْ عَلى هذِهِ الصَّخرَةِ وَأَصغِ إلى ما سَأَقولُهُ.

إمتَثَلَ حَميدٌ لِلأَمرِ. وَ بَعدَ صَمتٍ قصيرٍ، أَخَذَ العِفريتُ يَروي قِصَّتَهُ:

3

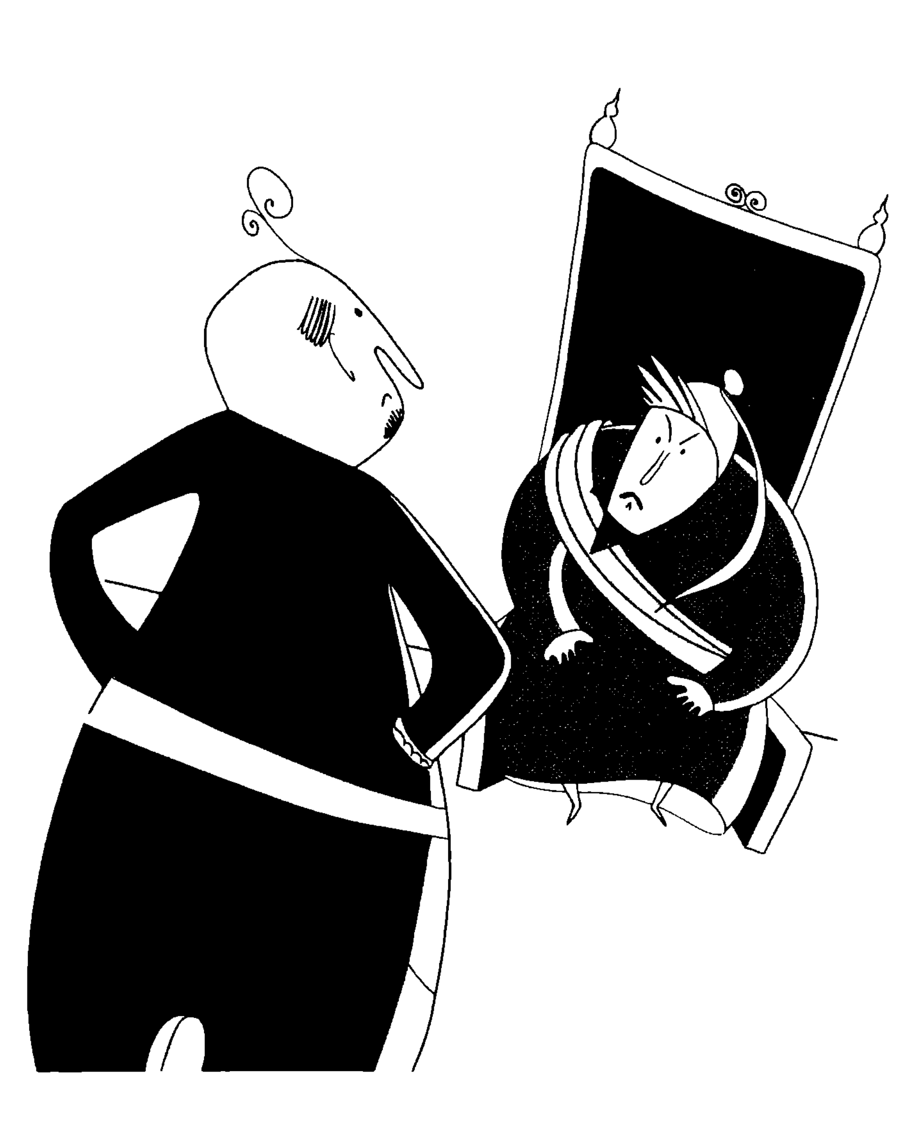
– إعرَفْ أَوَّلًا أَنَّني أُدعى بِلالَ، وَأَنَّني كُنْتُ أَعيشُ سابِقًا في مَغارَةٍ وَسطَ صَحراءِ شِبهِ الجَزيرَةِ العَرَبِيَّةِ. كانَ ذلِكَ مُنذُ زَمَنٍ بَعيدٍ جِدًّا، عِندَما قَرَّرَ عَفاريتُ الأَرضِ كُلُّهُم أَن يَعتَرِفوا بِسِيادَةِ المَلِكِ سُلَيمانَ ابنِ داودَ. تَمَّ ذلِكَ، فَذَهَبَ الجَميعُ، وَارتَمَوا عِندَ قَدَمَيهِ لِيُقَدِّموا لَهُ الوَلاءَ. قَليلونَ فَقَط رَفَضوا الخُضوعَ. وَكُنْتُ أَحَدَهُم. وَلِكَي يُخيفَنا نَحنُ المُتَمَرِّدينَ، كَلَّفَ سُلَيمانُ عَسّافًا

قائِدَ العَفاريتِ بِتَوقيفِنا وَسَوقِنا إلى العَرشِ. عِندَما مَثُلْنا أَمامَ المَلِكِ الفائِقِ القُدرَةِ، تَعَهَّدَ رِفاقي بِالوَلاءِ لَهُ فَورًا، شُعورًا مِنهُم بِالخَوفِ. كُنْتُ الوَحيدَ الَّذي أَبى ذلِكَ. وَلِلاقتِصاصِ مِنّي، أَمَرَ سُلَيمانُ عَسّافًا بِسَجني في هذِهِ القارورَةِ وَبِرَميِها في البَحرِ. وَقَد نُفِّذَ الأَمرُ فَورًا.

كانَ حَميدُ يُحَدِّقُ في العِفريتِ بِاهتِمامٍ. أَمّا العِفريتُ فَتابَعَ:

– خِلالَ القَرنِ الأَوَّلِ مِنَ الأَسرِ، قَرَّرْتُ أَن أُقَدِّمَ مَعروفًا لِمَن كانَ سَيَجِدُ القارورَةَ وَيُخرِجُني مِنها. لكِنَّ ذلِكَ القَرنَ مَضى، وَلَم يَأتِ أَحَدٌ لإِنقاذي. في القَرنِ التّالي، وَعَدْتُ بِأَن أُغَطِّيَ بِالذَّهَبِ مَن كانَ سَيُعيدُ إِلَيَّ حُرِّيَّتي. لكِنَّ ذلِكَ القَرنَ مَضى، وَمَكَثْتُ سَجينًا. في القَرنِ التّالي، تَعَهَّدْتُ بِأَن أَبوحَ بِسِرِّ السَّعادَةِ لِكُلِّ مَن

كانَ سَيُخرِجُني مِن سِجني. غَيرَ أَنَّ ذلِكَ القَرنَ انتَهى أَيضًا، مِن دونِ أَن يَتَغَيَّرَ مَصيري. أَخيرًا، وَبِداعي الغَضَبِ، أَقسَمْتُ بِأَن أَقضِيَ عَلى أَوَّلِ كائِنٍ يَمثُلُ أَمامي. هَل فَهِمْتَ الآنَ لِماذا عَلَيكَ أَن تَموتَ؟



4

لَم يَفقُدِ الصَّيّادُ رَباطَةَ جَأشِهِ، فَقالَ:

– أَيُّها العِفريتُ الفائِقُ القُدرَةِ، بِقَتلِكَ إيّايَ، أَنتَ تُهلِكُ كَذلِكَ زَوجَتي وَأَولادي، فَأَنا مُعيلُهُمُ الوَحيدُ. أَتَعتَقِدُ أَنَّهُم يَستَحِقّونَ مَصيرًا كَهذا، لا سِيَّما أَنَّكَ لا تَعرِفُهُم؟

– لا تَستَغِلَّ صَبري أَيُّها الوَقِحُ! إختَرْ ميتَتَكَ بِسُرعَةٍ، وَإلّا اختَرْتُها لَكَ بِنَفسي!

أَغمَضَ حَميدٌ عَينَيهِ، فَراوَدَتهُ صورَةُ عائِلَتِهِ الكَئيبَةِ،

وَقالَ في نَفسِهِ حابِسًا دُموعَهُ:

«عَلَيَّ أَن أَجِدَ مَخرَجًا بِأَيِّ ثَمَنٍ.»

– إذًا! أَيَّ ميتَةٍ اختَرْتَ؟ زَأَرَ بِلالُ.

– أَترُكُ الخِيارَ لَكَ... وَلكِن... بِالمُقابِلِ، هَل لي بِسُؤالٍ أَخيرٍ؟

– يا لَكَ مِن أَحمَقَ مِسكينٍ! الميتَةُ الَّتي أُعِدُّها لَكَ، لَن تَكونَ إلّا شَديدَةَ القَساوَةِ. وَلكِن، لا بَأسَ، إن كانَ هذا يُفرِحُكَ، فَسَأُجيبُ عَن سُؤالِكَ، ماذا تُريدُ أَن تَعرِفَ؟ أَضافَ ضاحِكًا.

– أُريدُ أَن أَعرِفُ كَيفَ استَطاعَ عِملاقٌ بِطولِكَ أَن يَدخُلَ قارورَةً صَغيرَةً جِدًّا؟

– يا لَلسُّؤالِ السَّخيفِ! لَقَد نَسيْتَ أَنَّني، ما دُمْتُ عَظيمَ القُدرَةِ، أَستَطيعُ أَن أَتَشَكَّلَ بِما يَحلو لي مِنَ الأَشكالِ!



– يَبدو لي هذا بِبَساطَةٍ مُستَحيلًا، رَدَّ الصَّيّادُ بِبُرودَةٍ.

– أَتَجرُؤُ عَلى الشَّكِّ بِقُدُراتي؟ صاحَ العِفريتُ.

في اللَّحظَةِ التّالِيَةِ، تَحَوَّلَ مُجَدَّدًا إلى دُخانٍ، وَأَصبَحَ بِكامِلِهِ في القارورَةِ، ثُمَّ صاحَ مِنَ الدّاخِلِ:

– حَسَنًا، أَرَأَيْتَ! ماذا سَتَقولُ الآنَ؟

كانَ الجَوابُ أَنِ استَولى حَميدٌ عَلى السِّدادَةِ الَّتي كانَت عَلى الرَّملِ، وَأَقفَلَ بِها القارورَةَ بِأَقصى سُرعَةٍ مُمكِنَةٍ.

– ها قَد وَقَعْتَ في الفَخِّ! لِلأَسَفِ أَنتَ بَينَ يَدَيَّ الآنَ، وَلَن أُطلِقَ سَراحَكَ أَبَدًا!

هَتَفَ العِفريتُ بِصَوتٍ مُضطَرِبٍ:

– حَميدُ! إفتَحِ القارورَةَ! لَم يَكُنْ ذلِكَ سِوى دُعابَةٍ! لَم يَكُنْ في نِيَّتي أَن أُسيءَ إلَيكَ! أَرَدْتُ فَقَط أَن أَمتَحِنَ شَجاعَتَكَ!

– أَنتَ كاذِبٌ وَحَقيرٌ! لَن أُخاطِرَ أَبَدًا بِالوُثوقِ بِكَ.

– يا حَميدُ الطَيِّبُ، أَرجوكَ! إذا تَرَكْتَني أَخرُجُ، فَسَأَجعَلُكَ الرَّجُلَ الأَكثَرَ نُفوذًا عَلى الأَرضِ!

– لَسْتُ مَجنونًا إِلى هذا الحَدِّ فَأُصَدِّقَكَ. أَنا لَن أَمتَنِعَ عَن فَتحِ القارورَةِ وَحَسْبُ، بَل سَأَرميها في البَحرِ؛ وَكُلُّ الصَّيّادينَ الَّذينَ، لِسوءِ حَظِّهِم، سَيَعثُرونَ عَلَيها، سَأَجعَلُهُم يَرمونَها مُجَدَّدًا في عُرضِ البَحرِ.

– لا! لا تَفعَلْ هذا!

لكِنَّ حَميدًا كانَ قَد تَوَقَّفَ عَنِ الإصغاءِ إِلَيهِ. فَاستَعَدَّ جَيِّدًا، وَرَمى القارورَةَ إِلى أَقصى حَدٍّ تَمَكَّنَ مِنهُ في البَحرِ.

لِلخَبيثِ مَن هُوَ أَخبَثُ



عَن طُرفَةٍ لِنَصرِ الدّينِ خوجَة

1

في ذلِكَ العامِ، كانَت مَدينَةُ الخَليفَةِ هارونَ الرَّشيدِ تَنامُ مُلتَحِفَةً بِمِعطَفٍ سَميكٍ مِنَ الثَّلجِ. لَم يَكُنِ السُّكّانُ قَد عَرَفوا شِتاءً مُماثِلًا قَطُّ. لَقَد أَهمَلوا أَعمالَهُمُ اليَومِيَّةَ مُتَّقينَ الهَواءَ وَالبَردَ، وَالتَجَأوا إلى بُيوتِهِم يَلتَمِسونَ الدِّفءَ قُربَ النّارِ. راحَ كُلٌّ مِنهُم يُمضي الوَقتَ كَما يَحلو لَهُ، فَيَأكُلُ، أَو يُغَنّي، أَو يَلعَبُ بِالنَّردِ، أَو يَنامُ بِكُلِّ بَساطَةٍ.

أَعيا السَّأَمُ جِحا الَّذي كانَ قابِعًا في كوخِهِ الحَقيرِ الصَّغيرِ، حَيثُ لا حَطَبَ يُشعِلُهُ لِلتَّدفِئَةِ، وَلا طَعامَ يَسُدُّ بِهِ جوعَهُ. مُمَدَّدًا عَلى كيسِ التِّبنِ البارِدِ، فارِغَ الأَحشاءِ، كانَ يَلعَنُ الطَّقسَ الرَّديءَ الَّذي عَطَّلَ السّوقَ. فَإِلى هُناكَ كانَ قَد تَعَوَّدَ الذَّهابَ لِيَكسِبَ عَيشَهُ.

كانَتِ الأَيّامُ تَتَوالى طَويلَةً وَرَتيبَةً، وَاحتِياطِيُّ الخُبزِ يَتَضاءَلُ بِصورَةٍ خَطِرَةٍ. أَمّا ثَروَةُ جِحا وَزَوجَتِهِ، فَلَم تَكُنْ سِوى ديكٍ وَدَجاجَتَينِ بَيّاضَتَينِ، وَكانا يَرفُضانِ التَّضحِيَةَ بِها لِإِسكاتِ جوعِهِما.

ذاتَ صَباحٍ، قالَت فاطِمَةُ لِزَوجِها بَعدَ أَن عيلَ صَبرُها:

– جِحا، لِماذا لا تَذهَبُ إِلى السّوقِ، بَدَلًا مِن بَقائِكَ مُمَدَّدًا مِن دونِ عَمَلٍ تَقومُ بِهِ؟ قَد تَجِدُ هُناكَ تاجِرًا أَوِ اثنَينِ بِحاجَةٍ لِخَدَماتِكَ. المالُ القَليلُ الَّذي يُمكِنُكَ أَن

تَجنِيَهُ لَن يَكونَ كَثيرًا عَلَينا.

لِلحالِ، نَهَضَ جِحا بِشَجاعَتِهِ المَعهودَةِ، وَاتَّجَهَ نَحوَ البابِ. وَلكِنَّهُ ما كادَ يَطَأُ الأَرضَ خارِجًا حَتّى صاحَ:

– فاطِمَةُ! يَستَحيلُ السَّيرُ عَلى هذِهِ الأَرضِ المُجَلَّدَةِ! فَلَن أَصِلَ أَبَدًا إلى السّوقِ مِن دونِ أَن أَنزَلِقَ وَأَكسِرَ أَحَدَ أَعضائي!

– حَسَنًا، لا بَأسَ، سَوفَ تَنتَظِرُ ارتِفاعَ الحَرارَةِ كَي تَذهَبَ إلى العَمَلِ.

– وَلكِن، ماذا عَلَينا أَن نَفعَلَ كَي نَبقى عَلى قَيدِ الحَياةِ؟

أَجابَت فاطِمَةُ الَّتي لَم تَكُنْ هِيَ الأُخرى تَفتَقِرُ إلى الشَّجاعَةِ:

– سَنَفعَلُ ما سَبَقَ أَن فَعَلْناهُ دائِمًا: سَنَصومُ، هذا كُلُّ شَيءٍ.



2

بَعدَ بِضعَةِ أَيّامٍ، عِندَ الغَسَقِ، قَدِمَ اثنانِ مِن جيرانِ جِحا لِزِيارَتِهِ. إِنَّهُما عُمَرُ وَأَحمَدُ اللَّذانِ أَرادا أَن يَتَخَلَّصا مِنَ الـمَلَلِ.

ما إِن دَخَلا الكوخَ حَتّى صُعِقا بِالفَقرِ الـمُدقِعِ الَّذي كانَ مُضيفُهُما يَعيشُ فيهِ. فَلا نارَ وَلا حَتّى غِطاءَ يَتَدَفَّأُ بِهِ لَيلًا. فَسَأَلَ أَحمَدُ:

– كَيفَ تَستَطيعُ أَن تَعيشَ في ظُروفٍ مُماثِلَةٍ؟ وَأَردَفَ

قائِلًا: في مِثلِ سِنِّكَ، يَصعُبُ تَحَمُّلُ البَردِ.

– لَم يُزعِجْني البَردُ قَطُّ، فَلَطالَما عِشْتُ حَياةً قاسِيَةً. وَكَم مِن مَرَّةٍ نِمْتُ في الهَواءِ الطَّلقِ: في حَقلٍ أَو في الصَّحراءِ. صَدِّقاني يا صَديقَيَّ، حَتّى دَرَجاتُ الحَرارَةِ الأَكثَرُ انخِفاضًا لا تُخيفُني.

قالَ عُمَرُ:

– إسمَحْ لي بِأَن أَشُكَّ في ما تَقولُ، فَقُدرَةُ الإنسانِ عَلى التَّحَمُّلِ مَحدودَةٌ.

إبتَسَمَ جِحا، فَقَد خَطَرَت لِلتَّوِّ فِكرَةٌ في بالِهِ، ثُمَّ نَظَرَ إلى صَديقَيهِ بِخُبثٍ وَقالَ لَهُما:

– أَنا مُستَعِدٌّ لِلمُراهَنَةِ عَلى أَنَّ بِاستِطاعَتي أَن أُمضِيَ اللَّيلَ في حَديقَتي. إن نَجَحْتُ في ذلِكَ، هَل تَدعُوانِنا زَوجَتي وَأَنا إلى الغَداءِ؟

تَبادَلَ الجارانِ نَظَراتٍ سَريعَةً، ثُمَّ هَتَفَ أَحمَدُ:

– قَبِلْنا الرِّهانَ! وَلكِن، إن أَخفَقْتَ، فَسَيَكونُ عَلَيكُما، زَوجَتِكَ وَأَنتَ، أَن تَدعُوانا، عُمَرَ وَأَنا، إلى غَداءٍ فاخِرٍ!

وأَضافَ عُمَرُ:

– وَحَذارِ! إنِ اقتَرَبْتَ، وَلَو قَليلًا جِدًّا، مِن أَيِّ مَصدَرِ حَرارَةٍ، مَهما كانَت ضَعيفَةً، خَسِرْتَ الرِّهانَ. مَفهومٌ؟

– لا تَخشَيا شَيئًا. لَن أَترُكَ الحَديقَةَ طَوالَ اللَّيلِ.

عِندَما رَحَلَ الجارانِ، اقتَرَبَت فاطِمَةُ مِن زَوجِها وَقالَت لَهُ:

– جِحا، لَقَد سَمِعْتُ ما دارَ بَينَكُم مِن حَديثٍ مُنذُ قَليلٍ. كَيفَ لِرَجُلٍ في مِثلِ سِنِّكَ أَن يَقطَعَ رِهانًا بِهذا الغَباءِ؟ حَتّى الحَيَوانُ المُفتَرِسُ، تَضعُفُ مُقاوَمَتُهُ في هذا البَردِ. قَد تَموتُ!

– لا تَقلَقي، أَعرِفُ ما أَقومُ بِهِ. وَسَأَعرِفُ كَيفَ أُظهِرُ لِهذَينِ المُشَكِّكَينِ أَنَّ جِحا هُوَ الأَقوى!

– لكِنَّكَ تنسى أَنَّ أحمَدَ وَعُمَرَ ثَعلَبانِ عَجوزانِ، وَلا بُدَّ أَن يَجِدا وَسيلَةً يَكسِبانِ بِها الرِّهانَ!

– سَوفَ نَرى ذلِكَ.

مَساءَ ذلِكَ اليَومِ، بَينَما كانَت فاطِمَةُ تَبكي وَحدَها في الكوخِ، ذَهَبَ جِحا إلى وَسَطِ الحَديقَةِ وَتَمَدَّدَ عَلى الأَرضِ.

3

عِندَ طُلوعِ النَّهارِ، أَيقَظَ عُمَرُ وَأَحمَدُ جِحا حَيثُ كانَ قَد نامَ لَيلًا، ثُمَّ قالَ أَحمَدُ:

– صَباحَ الخَيرِ، هَل أَمضَيْتَ لَيلَةً هانِئَةً؟

– هانِئَةً جِدًّا، شُكرًا، وَلَم أَتَحَرَّكْ مِن مَكاني.

– نَحنُ نَعلَمُ ذلِكَ، لَقَد شاهَدْناكَ مِن بَيتِنا. كَيفَ استَطَعْتَ أَن تَتَحَمَّلَ البَردَ؟ كانَت هذِهِ اللَّيلَةُ هِيَ الأَبرَدَ عَلى الإطلاقِ، قالَ عُمَرُ.

- قُلْتُ لَكُما مِن قَبلُ، أَنا لا أَخشى شَيئًا.

- لكِنَّ هذا لا يَجعَلُنا نَفهَمُ كَيفَ أَنَّكَ لَم تَمُتْ مِنَ البَردِ، قالَ أَحمَدُ.

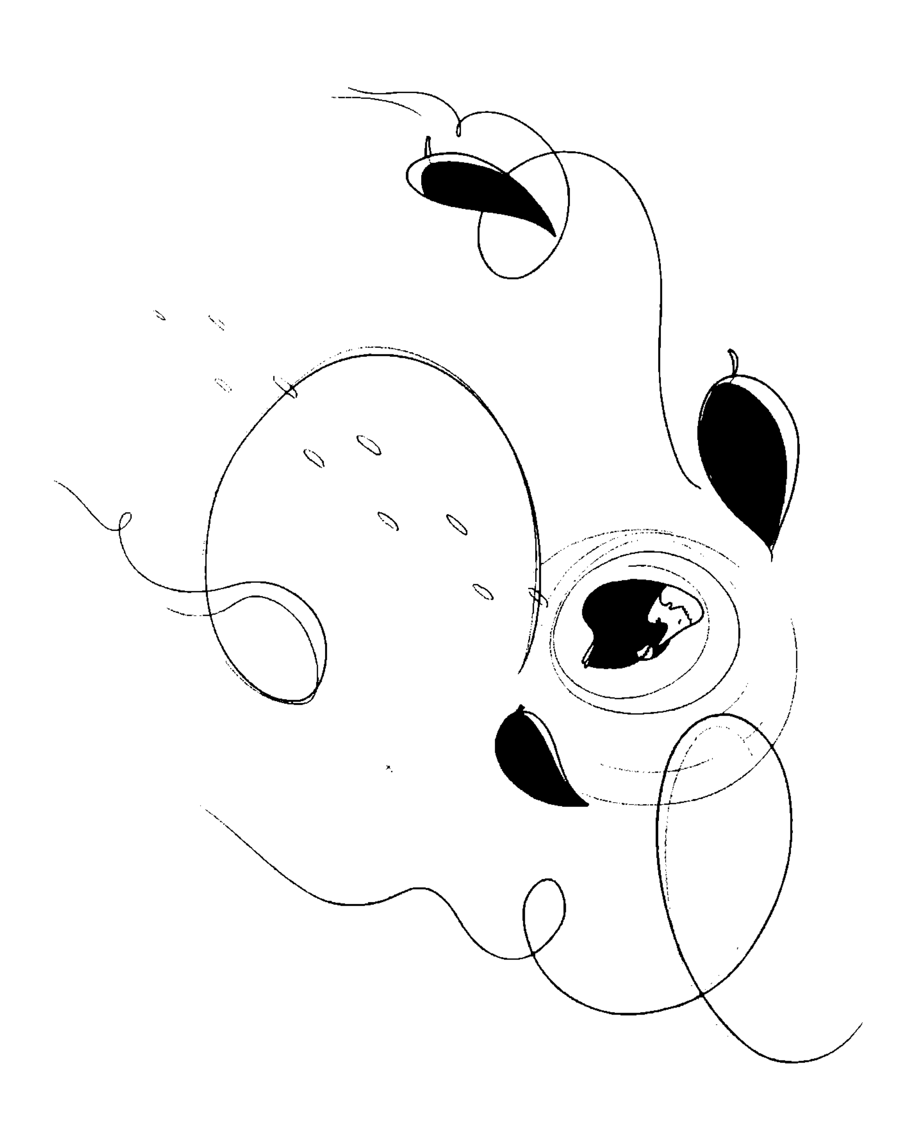
- الإرادَةُ قادِرَةٌ عَلى كُلِّ شَيءٍ. صادَفَ أَنَّ زَوجَتي كانَت قَد تَرَكَت سِراجَ الزَّيتِ مُضاءً خَلفَ النّافِذَةِ. لَقَد أَمضَيْتُ اللَّيلَةَ أُحَدِّقُ بِالشُّعلَةِ الصَّغيرَةِ الحَمراءِ، لِكَي تَمنَحَني الشُّعورَ بِأَنَّني قُربَ النّارِ.

- شُعلَةٌ حَمراءُ! صاحَ عُمَرُ.

- نَعَم، شُعلَةٌ حَمراءُ صَغيرَةٌ، صَغيرَةٌ جِدًّا، داخِلَ كوخِي. وَلكِنَّ ذلِكَ كانَ كافِيًا كَي أَشعُرَ بِالشَّجاعَةِ.

- إنَّ شُعلَةً، مَهما كانَت صَغيرَةً، لا تَنفَكُّ تَبعَثُ الحَرارَةَ، لَقَد أَمضَيْتَ اللَّيلَةَ إذًا قُربَ مَصدَرِ حَرارَةٍ، تابَعَ عُمَرُ.

- كانَت شُعلَةً صَغيرَةً جِدًّا، لكِنَّها مَعَ ذلِكَ تَبقى حَرارَةً. لَقَد تَدَفَّأْتَ إذًا! أَضافَ أَحمَدُ مُوافِقًا تَمامًا.



– لكِنَّ هذِهِ الحَرارَةَ كانَت خَلفَ النّافِذَةِ وبَعيدَةً جِدًّا عَنّي، فكَيفَ لَها أَن تُدفِئَني؟! صاحَ جِحا.

حاوَلَ الرَّجُلُ المِسكينُ أَن يَفرُضَ حُجَّتَهُ، إلّا أَنَّ الجارَينِ ظَلّا يُعانِدانِ، حَتّى قالَ عُمَرُ حاسِمًا:

– لَقَد خَسِرْتَ الرِّهانَ، وَكَما وَعَدْتَ، لَنا عَلَيكَ غداءٌ.

– سَنَكونُ عِندَكَ ظُهرًا، قُمْ بِما تَستَطيعُهُ وَإلّا خابَ ظَنُّنا بِكَ، وَعرَفَتِ المَدينَةُ كُلُّها أَنَّكَ لا تَفي بِوُعودِكَ، أَضافَ أَحمَدُ.

أَدارَ الرَّجُلانِ ظَهرَهُما، وَغادَرا مِن دونِ أَن يَنتَظِرا رَدَّةَ فِعلِ الخاسِرِ.

عِندَما عادَ جِحا إلى بَيتِهِ، أَخبَرَ زَوجَتَهُ ما جَرى لَهُ، فَصاحَت قائِلَةً:

– كُنْتُ قَد حَذَّرْتُكَ مِن هذَينِ الرَّجُلَينِ! ها نَحنُ الآنَ مُضطَرّانِ إلى تَقديمِ الطَّعامِ لَهُما... هَيّا بِنا، فَالوَقتُ

يُداهِمُنا. أُريدُ أَن أَذبَحَ إحدى الدَّجاجَتَينِ، ثُمَّ أَذهَبُ كَي أَجمَعَ الحَطَبَ لِتَسخينِ ماءِ القِدرِ.

– لا تُتعِبي نَفسَكِ، سَأَهتَمُّ بِكُلِّ شَيءٍ.

– ماذا تَقولُ؟ مُنذُ مَتى يَقومُ رَجُلٌ بعَمَلِ زَوجَتِهِ؟

– لَيسَ الاستِثناءُ بِقاعِدَةٍ، فاطِمَةُ. دَعيني أُظهِرُ لِضَيفَينا مَن هُوَ الأَكثَرُ خُبثًا.

صَمَتَتِ الزَّوجَةُ لَحظَةً، ثُمَّ قالَت مُبتَسِمَةً:

– أَنتَ... لَدَيَّ انطِباعٌ بِأَنَّكَ تُخَطِّطُ لِشَيءٍ... آمُلُ بِبَساطَةٍ أَن تَعرِفَ كَيفَ تُخَلِّصُنا مِن هذِهِ المَسأَلَةِ. عَلى كُلِّ حالٍ، لا تَنسَ أَنَّني إلى جانِبِكَ.

– شُكرًا يا حُلوَتي. الشَّيءُ الوَحيدُ الَّذي أَطلُبُهُ مِنكِ، هُوَ أَن تَستَقبِلي ضَيفَينا، وَتَجعَليهِما يَصبُرانِ أَطوَلَ وَقتٍ مُمكِنٍ.

– سَأَفعَلُ ما تَقولُ، يا زَوجِي الحَبيبَ.

4

في الوَقتِ الـمُحَدَّدِ ظُهرًا، قَرَعَ الجارانِ بابَ الكوخِ مَسرورَينِ. فَتَحَت فاطِمَةُ لَهُما، وَدَعَتهُما بِلُطفٍ لِلجُلوسِ، وَما إنِ استَقَرّا في مَكانِهِما حَتّى سَأَلَ أَحمَدُ:

- وَلكِن، أَينَ جِحا؟

- إنَّهُ في الـمَطبَخِ، لَقَد أَخَذَ عَلى عاتِقِهِ إعدادَ الطَّعامِ.

- وَماذا يُعِدُّ لَنا مِن طَيِّبٍ؟ سَأَلَ عُمَرُ.

- دَجاجًا بِالخُضَرِ.

– دَجاجًا بِالخُضَرِ! صاحَ أَحمَدُ. يا لَلطَّبَقِ المُغَذّي! مَتى نَجلِسُ إلى المائِدَةِ؟

– آهٍ! هذا لَن يَتَأَخَّرَ، الدَّجاجَةُ تُطهى عَلى نارٍ هادِئَةٍ مُنذُ الصَّباحِ، أَجابَت فاطِمَةُ.

وَكَما كانَ جِحا قَد طَلَبَ مِنها، أَخَذَت فاطِمَةُ تَشغَلُ المَدعُوَّينِ أَطوَلَ وَقتٍ مُمكِنٍ. تَناوَلَتِ المُحادَثَةُ بِالدَّورِ أُمورَ العائِلَةِ، وَالشِّتاءَ الَّذي لا يَنتَهي، وَالصِّعابَ اليَومِيَّةَ. هكَذا مَضَت ساعَةٌ، وَلَمّا يُعلَنْ جُهوزُ الطَّعامِ. وَلِاضطِرارِها إلى القِيامِ بِالأَعمالِ المَنزِلِيَّةِ، تَرَكَت فاطِمَةُ أَخيرًا الرَّجُلَينِ وَحدَهُما.

قالَ عُمَرُ مُتَعَجِّبًا:

– غَريبٌ! هذا الدَّجاجُ بِالخُضَرِ لا يَبعَثُ أَيَّ رائِحَةٍ في الكوخِ! ما رَأيُكَ لَو نَذهَبُ إلى المَطبَخِ فَنَرى أَينَ أَصبَحَ جِحا مِنَ الطَّعامِ؟

– أَنتَ لا تَشُمُّ شَيئًا لِأَنَّ البابَ مُغلَقٌ، فَلْنَترُكْ سَيِّدَ البَيتِ يَعمَلُ بِسَلامٍ. لِكَي يَنجَحَ، يَجِبُ أَن تُطهى الدَّجاجَةُ طَويلًا. وَإِنِ انتَظَرْنا بَعدُ، فَسَيَكونُ الطَّعامُ أَفضَلَ.

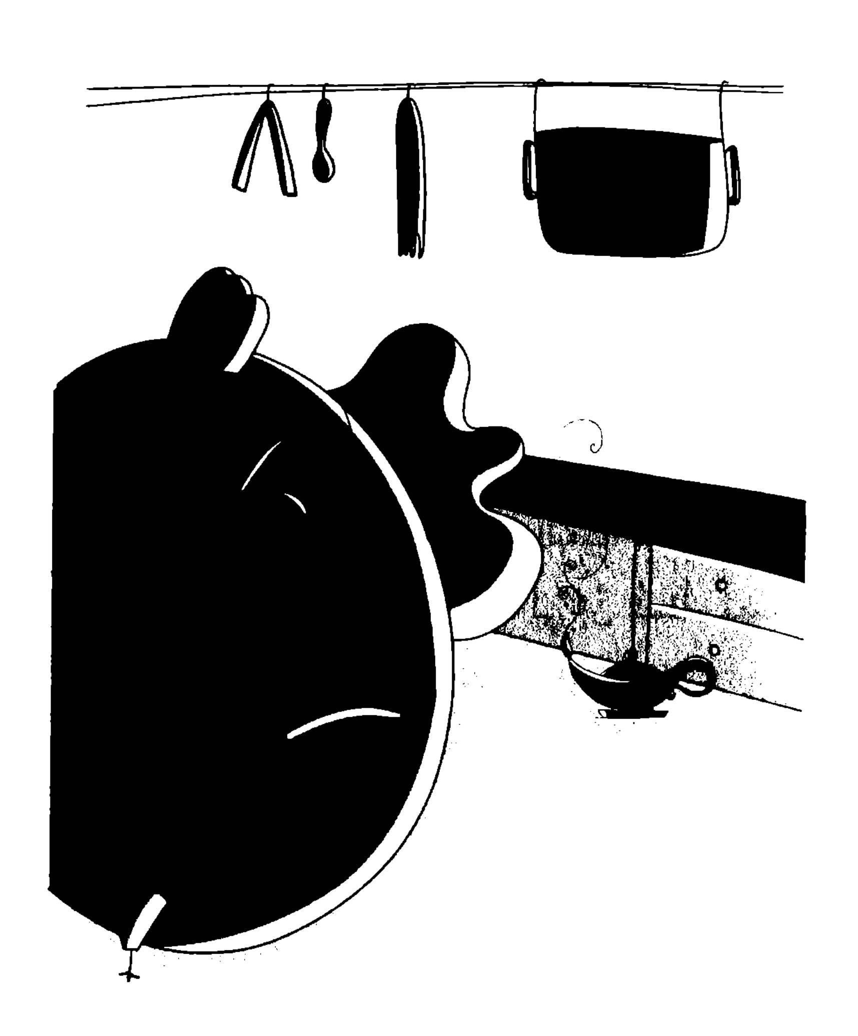
وَلكِنَّ ساعَةً إِضافِيَّةً مَرَّت، وَلَيسَ ثَمَّةَ رائِحَةٌ لِطَعامٍ. بَدَأَت أَحشاءُ المَدعُوِّينِ تَصرُخُ جوعًا. عِندَما مَرَّت ساعَةٌ ثالِثَةٌ، كانَ عُمَرُ قَد فَقَدَ الصَّبرَ، فَنَهَضَ فَجأَةً وَقالَ:

– كَفى صَبرًا! أُريدُ أَن أَرى ماذا يَفعَلُ!

تَبِعَهُ أَحمَدُ مِن دونِ أَن يَردَعَهُ.

ما رَأَياهُ عِندَما فَتَحا البابَ أَخرَسَهُما.

كانَت دَجاجَةٌ تَنقُرُ فُتاتًا مِن خُبزٍ وَجبنَةٍ قَديمَةٍ جِدًّا، وَهِيَ جاثِمَةٌ عَلى طاوِلَةِ المَطبَخِ. أَمَّا جِحا فَكانَ واقِفًا عَلى كُرسِيٍّ، في يَدِهِ مِلعَقَةٌ كَبيرَةٌ، يُراقِبُ مُحتَوى قِدرٍ مُتَدَلِّيَةٍ مِنَ السَّقفِ كَالثُّرَيّا. وَعَلى الأَرضِ كَذلِكَ، تَحتَ



القِدرِ، وَلكِن عَلى بُعدِ مَسافَةٍ مِنها، سِراجُ زَيتٍ يُرَقِّصُ شُعلَتَهُ الصَّغيرَةَ الحَمراءَ. فَصاحَ أَحمَدُ:

– وَلكِن ماذا تَفعَلُ؟

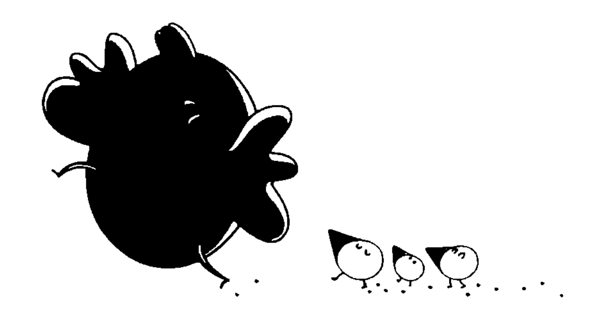
– أَنتَظِرُ أَن يَغلِيَ الماءُ لِكي أُسقِطَ فيهِ الدَّجاجَةَ. لَن يَطولَ الأَمرُ. أَجابَ جحا بِكُلِّ بَساطَةٍ.

– هَل تَسخَرُ مِنّا؟ كَيفَ تُريدُ أَن يَغلِيَ الماءُ، وَلَيسَ مِن شَيءٍ يُسَخِّنُهُ سِوى تلكَ الشُعلَةِ في البَعيدِ؟ سَأَلَ عُمَرُ.

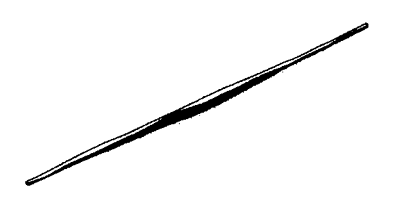
– وَلكِن، أَلَسْتَ أَنتَ مَن قُلْتَ لي إِنَّ شُعلَةً، مَهما كانَت صَغيرَةً، لا تَنفَكُّ تَبعَثُ الحَرارَةَ؟

نَظَرَ الجارانِ أَحَدُهُما إلى الآخَرِ حائِرَينِ، ثُمَّ قالَ جِحا:

– هَيّا يا صَديقَيَّ، تَفَضَّلا إلى المائِدَةِ! قَريبًا أُقَدِّمُ الدَّجاجَ بِالخُضَرِ!



نَصائِحُ حِمارٍ



عَن حِكايَةِ الحِمارِ معَ الثَّورِ مِن كِتابِ أَلفِ لَيلَةٍ وَلَيلَةٍ.

1

كانَ مُصطَفى قَرَوِيًّا فَقيرًا يَعيشُ مَعَ زَوجَتِهِ عائِشَةَ في كوخٍ مَبنِيٍّ في ظِلِّ نَخلَةٍ. لَم يَكُنْ يَملِكُ إلّا حِمارًا، وَثورًا، وَحَقلًا صَغيرًا يَزرَعُهُ كَي يُؤَمِّنَ حاجَتَهُ وَحاجَةَ زَوجَتِهِ.

كُلَّ يومٍ، يَنهَضُ فَجرًا، فَيَصحَبُ ثَورَهُ إلى الأَراضي الزِّراعِيَّةِ، وَيَربُطُهُ بِالمِحراثِ. كانَ العَمَلُ شاقًّا بِالنِّسبَةِ إلى الحَيَوانِ المِسكينِ، المُجبَرِ عَلى المَشيِ تَحتَ شَمسٍ

حارِقَةٍ، جارًّا حِملَهُ الثَّقيلَ مِن دونِ تَوَقُّفٍ، بَينَما سَيِّدُهُ يُمطِرُ ظَهرَهُ بِوابِلٍ مِن ضَرَباتِ خَيزُرانَتِهِ.

وَفيما الثَّورُ يخُطُّ بِعَناءٍ أَتلامًا طَويلَةً في الأَرضِ اليابِسَةِ، يَبقى الحِمارُ وَحيدًا في الهُرِيِ مُستَلقِيًا عَلى التِّبنِ، يَتَثاءَبُ لا مُبالِيًا. وَعِندَما يَسأَمُ البَقاءَ مُمَدَّدًا، يَخرُجُ كَي يُنَشِّطَ قَوائِمَهُ وَيَتَنَشَّقَ قَليلًا مِنَ الهَواءِ المُنعِشِ، فَنَراهُ إذّاكَ يَقضُمُ باقاتٍ مِنَ العُشبِ. وَما إن يَملَأُ بَطنَهُ، حَتّى يَذهَبَ كَي يَأخُذَ قَيلولَةً في ظِلِّ نَخلَةٍ. نادِرًا ما كانَ مُصطَفى يَلجَأُ إلَيهِ، وَذلِكَ كَي يَنقُلَ مَحصولَهُ الزِّراعِيَّ إلى السّوقِ، أَو كَي يُقِلَّ زَوجَتَهُ عائِشَةَ عِندَما تَذهَبُ لِزِيارَةِ أَهلِها. كانَ بِالإمكانِ القَولُ إنَّ حَياةَ الحِمارِ كانَت أَقَلَّ شَقاءً مِن حَياةِ الثَّورِ!

نِهايَةَ كُلِّ نَهارٍ، يَعودُ الثَّورُ إلى الهُرِيِ مُنهَكًا. وَبِسُرعَةٍ يَلتَهِمُ حِصَّتَهُ الصَّغيرَةَ مِنَ الشّوفانِ وَيَرتَمي عَلى التِّبنِ.

وَلكِن، ذاتَ مَساءٍ، راوَدَتِ الحِمارَ عِدَّةُ أَفكارٍ، رُبَّما بِدافِعِ الشَّفَقَةِ عَلى رَفيقِهِ، فَقالَ لَهُ:

- يُمَزِّقُ قَلبي أَن أَراكَ تَعودُ دائِمًا مُنهَكَ القِوى. أَيَّ ذَنبٍ قَد صَنَعْتَ لِلرَّبِّ كَي تَستَحِقَّ عَمَلًا مُضنِيًا إِلى هذا الحَدِّ؟

أَطلَقَ الثَّورُ تَنهيدَةً، ثُمَّ أَجابَ:

- مَأساتي أَنَّني بِبَساطَةٍ وُلِدْتُ ثَورًا، فَها‌ءَنَذا مُجبَرٌ عَلى القِيامِ بِأَعمالِ الحُقولِ الشّاقَّةِ.

- وَماذا تَجني بِالمُقابِلِ؟

أَجابَ الثَّورُ حابِسًا دُموعَهُ:

- عَزائي الوَحيدُ، هُوَ القَليلُ مِنَ الشّوفانِ الَّذي أَتَناوَلُهُ قَبلَ النَّومِ.

فَقالَ الحِمارُ بِتَعالٍ:

- يا لَكَ مِن أَحمَقَ مِسكينٍ! الحَياةُ الَّتي تَعيشُها لا



تُطاقُ! لِماذا لا تَتَمَرَّدُ؟

– أَتَمَرَّدُ؟ هَل سَبَقَ لِثورٍ أَن تَمَرَّدَ؟

– لِماذا إذًا لا تَهرُبُ؟

– كَي يَقبِضَ عَلَيَّ شَخصٌ آخَرُ، فَيَجعَلَني أَعمَلُ أَكثَرَ؟

بَقِيَ الحِمارُ صامِتًا لَحظَةً، ثُمَّ صَرَّحَ قائِلًا:

– في هذِهِ الحالَةِ، اسمَعْني جَيِّدًا. سَأَقولُ لَكَ كَيفَ تَتَصَرَّفُ.

فَتَحَ الثَّورُ عَينَيهِ الكَبيرَتَينِ، وَمَدَّ أُذُنَيهِ الطَّويلَتَينِ نَحوَ رَفيقِهِ.

– غَدًا مَساءً، عِندَما تَعودُ مِنَ العَمَلِ، سَوفَ تَنامُ بَعدَ أَن تَكونَ بِالكادِ قَد لَمَسْتَ شوفانَكَ. وَعِندَما يَأتي سَيِّدُنا صَباحًا لِاصطِحابِكَ إلى الحَقلِ، سَوفَ تَبقى مُمَدَّدًا عَلى التِّبنِ. مَعَ رُؤيَتِهِ إيّاكَ عَلى هذِهِ الحالِ، وَاستِنتاجِهِ أَنَّكَ تَقريبًا لَم تَتَناوَلْ شَيئًا في اللَّيلَةِ السّابِقَةِ، سَيَعتَقِدُ أَنَّكَ

مَريضٌ، وَسَيَترُكُكَ مُرتاحًا. إن تَصَرَّفْتَ عَلى هذا النَّحوِ يَومِيًّا، فَسَيَنتَهي بِهِ الأَمرُ إلى شِراءِ ثَورٍ آخَرَ كَي يَعمَلَ مَكانَكَ.

أَطلَقَ الثَّورُ خُوارًا يَحمِلُ الرِّضى، لَدى سَماعِهِ هذا الكَلامَ.

– لا أَعرِفُ كَيفَ أَشكُرُكَ! سَأَتبَعُ نَصيحَتَكَ حَرفِيًّا!

2

مَساءَ اليَومِ التّالي، عِندَما عادَ الثَّورُ مِنَ الحَقلِ، لَم يَتَناوَلْ سِوى حَفنَةٍ مِنَ الشّوفانِ، ثُمَّ تَمَدَّدَ على التِّبنِ وَنامَ.

في الصَّباحِ التّالي، دَخَلَ مُصطَفى الهُريَ، وَوَجَدَ الثَّورَ نائِمًا عَلى جَنبِهِ، وَقَوائِمُهُ مُنثَنِيَةٌ تَحتَ بَطنِهِ. فَوَخَزَهُ بِرَأسِ خَيزُرانَتِهِ لِإيقاظِهِ، ظَنًّا مِنهُ أَنَّهُ نائِمٌ، وَلكِنَّ الحَيَوانَ ظَلَّ جامِدًا مِن دونِ حِراكٍ. مُتَفاجِئًا، وَخَزَهُ الرَّجُلُ مُجَدَّدًا، وَكَرَدِّ فِعلٍ، أَطلَقَ الثَّورُ خُوارًا

أَشبَهَ بِنُواحٍ.

فَتَساءَلَ مُصطَفى: «ما بِهِ اليَومَ؟ هَل يُمكِنُ أَن يَكونَ مَريضًا؟»

مِن دونِ أَن يَنتَظِرَ، خَرَجَ مِنَ الهُرِيِ، وَهَرَعَ يَستَشيرُ زَوجَتَهُ. كانَت لا تَزالُ تَرفَعُ أَطباقَ الفُطورِ عَنِ المائِدَةِ، فَقالَت لَهُ:

– لا شَكَّ في أَنَّ هذا الحَيَوانَ المِسكينَ مُرهَقٌ. فَالنَّمَطُ الَّذي تَجعَلُهُ يَعمَلُ بِهِ سَيُؤَدّي بِهِ إلى الهَلاكِ.

– وَلكِنَّني أَعمَلُ بِقَدرِ ما يَعمَلُ! رَدَّ مُصطَفى بِصَوتٍ مُضطَرِبٍ.

– نَعَم، وَلكِنَّكَ لا تَجُرُّ مِحراثًا، وَلا تَتَلَقّى ضَرَباتِ خَيزُرانَةٍ طَوالَ النَّهارِ!

– ما العَمَلُ إذًا؟ فَأَنا، مَهما يَكُنْ، لا أَستَطيعُ أَن أَحرُثَ الأَرضَ وَحدي...

– أَترُكِ الثَّورَ يَرتاحُ وَساعِدْني في أَعمالِ البَيتِ، لَعَلَّهُ يَكونُ غَدًا بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ.

عِندَما تَأَكَّدَ لِلحِمارِ أَنَّ سَيِّدَهُ لَن يَعودَ مِن عَمَلِهِ خِلالَ النَّهارِ، استَدارَ نَحوَ رَفيقِهِ، وَقالَ لَهُ:

– أَلَم تُحسِنِ التَّصَرُّفَ بِاتِّباعِكَ نَصيحَتي؟ ها قَد تَخَلَّصْتَ مِنَ العَمَلِ اليَومَ.

– لَقَد أَسدَيْتَ إِلَيَّ خِدمَةً جَليلَةً يا صَديقي!

– لكِن، لا تَنسَ خُصوصًا أَن تَستَمِرَّ بِهذِهِ الخُدعَةِ الصَّغيرَةِ إِلى أَن يَجِدَ سَيِّدُكَ ثَورًا آخَرَ كَي يَحُلَّ مَحَلَّكَ.

– لَن يَفوتَني ذلِكَ! قالَ الثَّورُ بِحَماسَةٍ.

أَمضى الحَيَوانانِ النَّهارَ مُمَدَّدَينِ عَلى التِّبنِ، الواحِدُ بِجانِبِ الآخَرِ، يَتَبادَلانِ أَحاديثَ مُمتِعَةً. حَلَّ المَساءُ، وَمَرَّةً أُخرى، لَم يَتَناوَلِ الثَّورُ سِوى حَفنَةٍ صَغيرَةٍ مِنَ الشّوفانِ قَبلَ أَن يَنامَ.

3

صَباحَ اليَومِ التّالي، عِندَما دَخَلَ مُصطفى الهُريَ مِن جَديدٍ، وَجَدَ الطَّعامَ بِالكادِ قَد مُسَّ، وَالثَّورَ لا يَزالُ نائِمًا عَلى جَنبِهِ وَقَوائِمُهُ مُنثَنِيَةٌ تَحتَ بَطنِهِ. وَمِن دونِ أَن يُبادِرَ إلى وَخزِهِ بِالخَيزُرانَةِ، أَسرَعَ كَي يُخبِرَ زَوجَتَهُ.

– لا شَكَّ في أَنَّ هذا الحَيَوانَ المِسكينَ مَريضٌ. إمنَحْهُ الوَقتَ كَي يَتَعافى، قالَت عائِشَةُ.

– وَلكِنَّ هذا قَد يستَمِرُّ أَيّامًا! كَيفَ لي أَن أَحرُثَ

الحَقلَ؟ صاحَ مُصطَفى.

- فَلْنَنتَظِرْ حَتّى هذا المَساءِ. سَنرى كَيفَ تَسيرُ الأُمورُ...

مَساءً، عِندَما عادَ مُصطَفى إلى البَيتِ، قالَت لَهُ عائِشَةُ:

- أَتَعلَمُ؟ لا أَعتَقِدُ أَنَّ الثَّورَ مَريضٌ حَقًّا. أَعتَقِدُ بِالأَحرى أَنَّهُ يَدَّعي ذلِكَ لِئَلّا يَعمَلَ.

- ما الَّذي يَدعوكِ إلى هذا الاِعتِقادِ؟

- اليَومَ، وَأَنتَ تَعمَلُ وَحدَكَ في الحَقلِ، اختَبَأْتُ خَلفَ بابِ الهُريِ كَي أَختَلِسَ النَّظَرَ إلى ما كانَ يَجري هُناكَ. تَصَوَّرْ أَنَّ الثَّورَ كانَ مُمَدَّدًا بِجانِبِ الحِمارِ، وَأَنَّ الِاثنَينِ مَعًا، وَفقَ ما بَدا لي، كانا يُمضِيانِ وَقتًا طَيِّبًا!

- إن كانَ الحِمارُ شَريكًا في هذِهِ المَهزَلَةِ، فَأَرى أَن أُلَقِّنَهُ دَرسًا جَيِّدًا!

في اليَومِ التّالي، دَخَلَ مُصطَفى الهُريَ، فَوَجَدَ الثَّورَ عَلى ما كانَ عَلَيهِ في الأَيّامِ السّابِقَةِ. عِندَئِذٍ اقتَرَبَ مِنَ الحِمارِ، وَاتَّكَأَ عَلى عُنُقِهِ وَهمَسَ في أُذُنِهِ:

– بِما أَنَّ رَفيقَكَ لا يَزالُ مَريضًا، فَسَتَحُلُّ أَنتَ مَحَلَّهُ رَيثَما يُشفى.

وَعَلَيهِ، وَخزَ الحَيَوانَ بِالخَيزُرانَةِ وَأَخَذَهُ إلى الحَقلِ.



4

مَعَ حُلولِ المَساءِ، عادَ الحِمارُ إلى الهُرِيِ مُنهَكًا، مُحمَرَّ الجَسَدِ مِن جَرّاءِ ضَرَباتِ الخَيزُرانَةِ. غيرَ أَنَّهَ سَعى جاهِدًا إلى عَدَمِ إظهارِ شَيءٍ. فَبَعدَما فَكَّرَ مَلِيًّا في أَفضَلِ وَسيلَةٍ لِلخُروجِ مِنَ المَأزِقِ الَّذي أَقحَمَ نَفسَهُ بِهِ، أَعَدَّ خُطَّةً سِرِّيَّةً. أَمّا الثَّورُ المُمَدَّدُ بِراحَةٍ عَلى التِّبنِ فَسَأَلَهُ:

– كَيفَ أَمضَيْتَ النَّهارَ؟

– آهِ، في الحَقيقَةِ، لَيسَ بِالسّوءِ ما يُذكَرُ! فَقَد طَلَبَ سَيِّدُنا مِنّي بِبَساطَةٍ أَن أَشُقَّ بَعضَ الأَتلامِ، ثُمَّ تَرَكَني أَرعى، عَلى هَوايَ، العُشبَ النَّضِرَ عِندَ حُدودِ الحَقلِ.

فَقالَ الثَّورُ في نَفسِهِ:

«إنَّ العالَمَ لَمُجحِفٌ حَقًّا. لِماذا يَكُدُّني سَيِّدي مِنَ الصَّباحِ حَتّى المَساءِ، فيما عَمَلُ الحِمارِ وَظيفَةٌ سَهلَةٌ وَمُربِحَةٌ؟»

ثُمَّ فَكَّرَ لَحظَةً وَتَوَصَّلَ إلى النَّتيجَةِ الآتِيَةِ:

«رُبَّما أَرادَ مُراعاتَهُ في اليَومِ الأَوَّلِ. لكِنَّني أَشُكُّ في أَن يَكونَ لَطيفًا، لاحِقًا. إنَّ أَعمالَ الحَقلِ تَراكَمَت كَثيرًا مُنذُ أَنِ ادَّعَيْتُ المَرَضَ. سُرعانَ ما سَيَفهَمُ الحِمارُ مَأساتَهُ!»

في هذا الوَقتِ، وَفيما كانَ الثَّورُ يُفَكِّرُ بِهُدوءٍ، راحَ الحِمارُ يَنظُرُ إلَيهِ بِعَينَينِ كانَتا تَزدادانِ حُزنًا. تَفاجَأَ

الحَيَوانُ البَقَرِيُّ لِلأَمرِ أَخيرًا، فَسَأَلَ الحِمارَ:

– لِماذا تَتَأَمَّلُني هكذا؟ هَل أَصبَحْتَ صُدفَةً مَريضًا؟

– كَلّا، وَلكِن يُقلِقُني ما سَيَحِلُّ بِكَ غَدًا.

نَظَرَ إلَيهِ الثَّورُ بِخَشيَةٍ وَسَأَلَهُ:

– ماذا تَوَدُّ أَن تَقولَ، يا صَديقي؟

عِندَئِذٍ هَمَسَ الحِمارُ في أُذُنِهِ:

– مُنذُ قَليلٍ، سَمِعْتُ سَيِّدَنا يَقولُ لِزَوجَتِهِ إنَّهُ قَرَّرَ أَن يَبيعَكَ إلى جَزّارِ القَريَةِ، إن وَجَدَكَ لا تَزالُ مَريضًا.

إثرَ هذِهِ الكَلِماتِ، سَرَت قُشعَريرَةٌ في عَمودِ الثَّورِ الفِقرِيِّ، فَسَأَلَ الحِمارَ وَهوَ يَرتَجِفُ:

– وَلكِن، لِماذا يُريدُ أَن يَبيعَني إلى جَزّارٍ؟

أَجابَ الحِمارُ بِبُرودَةٍ:

– لِأَنَّهُ يَعتَقِدُ أَنَّكَ عَديمُ الفائِدَةِ وَأَنتَ مَريضٌ. أَمّا قيمَتُكَ، مِن حَيثُ ثَمَنُ لَحمِكَ، فَكَبيرَةٌ حَقًّا.



– وَلكِنَّ هذا مُخيفٌ! أَرجوكَ قُلْ لي كَيفَ أَتَجَنَّبُ ذلِكَ!

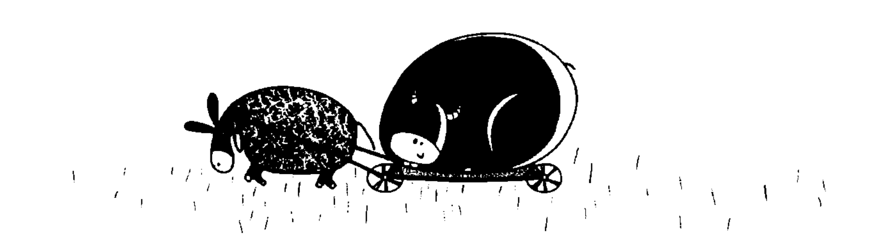
– ما عَلَيكَ إلّا أَن تَتَناوَلَ حِصَّتَكَ كامِلَةً مِنَ الشّوفانِ، حَتّى إذا ما دَخَلَ سَيِّدُنا الهُريَ صَباحَ غَدٍ، استَنتَجَ أَنَّكَ تَعافَيْتَ، وَعَدَلَ عَن بَيعِكَ.

فَصاحَ الثَّورُ وَهوَ يَقفِزُ فَرَحًا:

– آهِ، شُكرًا لِمُساعَدَتِكَ! أَدينُ لَكَ بِحَياتي!

لكِنَّ ما كانَ يَجهَلُهُ الحَيَوانانِ وَهُما يَتحادَثانِ، أَنَّ مُصطَفى وَزَوجَتَهُ كانا مُختَبِئَينِ خَلفَ البابِ المَفتوحِ قَليلًا، يَختَلِسانِ النَّظَرَ إلَيهِما. عِندَما انتَهى الحِوارُ، استَدارَت عائِشَةُ نَحوَ زَوجِها وَقالَت لَهُ بِصَوتٍ خافِتٍ:

– أَتَرى كَم كُنْتُ عَلى حَقٍّ؟ نَظَرًا لِلقَفزَةِ الَّتي قامَ بِها الثَّورُ لِلتَّوِّ، تَستَطيعُ أَن تَكونَ واثِقًا بِأَنَّهُ سَيَذهَبُ غَدًا صَباحًا إلى الحَقلِ مِن دونِ تَمَنُّعٍ. كَما أُراهِنُ عَلى أَنَّهُ سَيَعمَلُ أَكثَرَ مِن أَيِّ وَقتٍ مَضى.



خَروفٌ أَم كَلبٌ؟



عَن مَثَلِ النّاسكِ وَالعَريضِ وَاللُّصوصِ مِن كِتابِ كَليلَةَ وَدِمنَةَ.

1

كانَت مَدينَةُ الخَليفَةِ هارونَ الرَّشيدِ تَمُرُّ بِأَوقاتٍ عَصيبَةٍ، فَالعَمَلُ يَندُرُ أَكثَرَ فَأَكثَرَ، وَكَثيرونَ مِنَ السُّكّانِ لا يَنجَحونَ في إسكاتِ جوعِهِم. وَجِحا المِسكينُ لم ينجُ مِن هذا الوَضعِ، فَراحَ يَهيمُ مِن مَكانٍ إلى آخَرَ مُمارِسًا مِنَ المِهَنِ كُلَّ ما يَدُرُّ عَلَيهِ بَعضَ الدَّنانيرِ، فَكانَ يَحمِلُ حُزَمَ بَضائِعَ لِبائِعي التَّوابِلِ، وَيَبيعُ سَجّادًا في الأَسواقِ، وَيَعمَلُ جَزّارًا.

يَومَ بَدَأَت قِصَّتُنا، كانَت حَرارَةٌ مُضنِيَةٌ تُحكِمُ قَبضَتَها عَلى الـمَدينَةِ. فَالشَّوارِعُ، الَّتي غالِبًا ما تَكونُ مُزدَحِمَةً، خَلَت مِن مَعالِمِ الحَياةِ. مُعظَمُ السُّكّانِ مَكَثوا في بُيوتِهِم، وَالحَيَوانَاتُ في الحُقولِ، لَجَأَت إلى ظِلالِ النَّخلِ.

عَلى الرَّغمِ مِن ذلِكَ، جابَهَ جِحا مَعَ اثنَينِ مِن رُفَقائِهِ الشَّمسَ الحارِقَةَ، كَي يَبيعوا سَمَكًا كانَ صَيّادونَ قَد عَهِدوا إلَيهِم بِبَيعِهِ. تَمَّتِ الـمُهِمَّةُ، فَإذا بِالرِّجالِ الثَّلاثَةِ يَعودونَ إلى النَّهرِ، وَسِلالُهُم فارِغَةٌ، كَي يَتَمَوَّنوا مِن جَديدٍ.

عَلى الطَّريقِ، وَبِما أَنَّهُم كانوا يُحاذونَ بُستانًا مِنَ النَّخلِ، قالَ جِحا لِرَفيقَيهِ:

– يا صَديقَيَّ، الشَّمسُ تَقسو أَكثَرَ فَأَكثَرَ. فَلْنَستَرِحْ في ظِلالِ أَشجارِ النَّخلِ الكَبيرَةِ هذِهِ. سَنُتابِعُ سَيرَنا

عِندَ نِهايَةِ النَّهارِ.

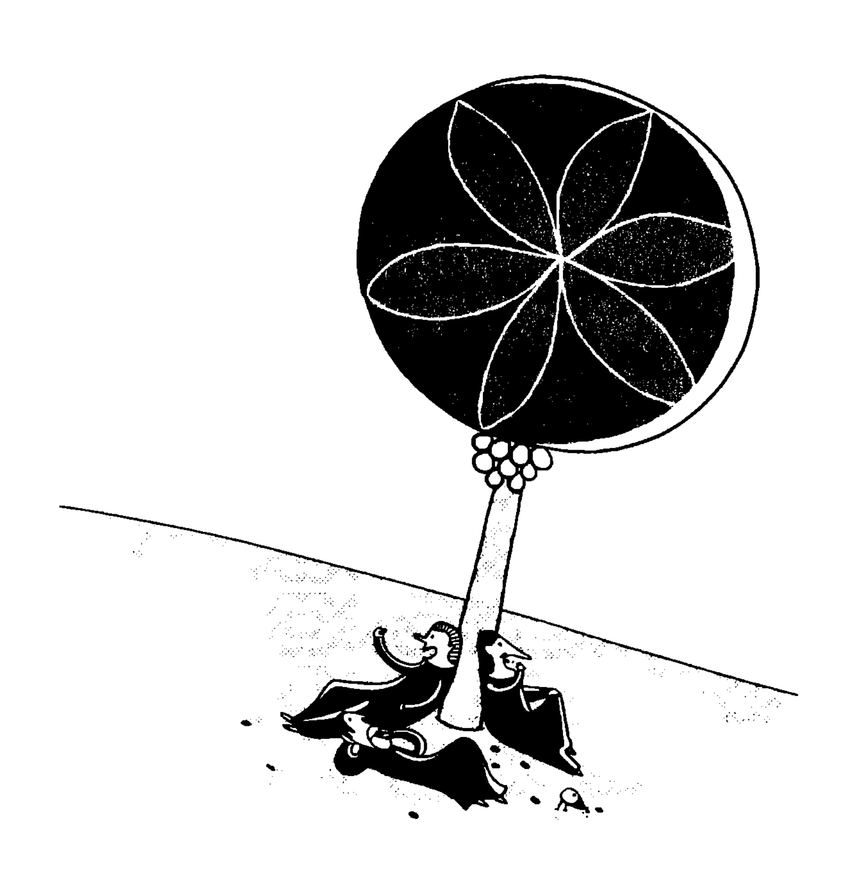
فَقالَ أَحَدُ الرِّجالِ وَكانَ يُدعى مُرادًا:

– أَنتَ عَلى حَقٍّ يا جِحا، زِدْ عَلى ذلِكَ أَنَّ الصَّيّادينَ سَيحصُلونَ عَلى مَزيدٍ مِنَ السَّمَكِ يَعهَدونَ إلَينا بِبَيعِهِ، إنِ انتَظَرْنا حَتّى المَساءِ.

ثُمَّ أَضافَ وَهوَ يَستَديرُ نَحوَ الرَّفيقِ الثّالِثِ:

– هَيّا يا غَسّانُ، إذا ما حَكَمْتُ وَفقًا لِلَونِ وَجهِكَ، فَأَنتَ الأَكثَرُ تَعَبًا بَينَنا!

تَمَدَّدَ الرِّفاقُ الثَّلاثَةُ عَلى العُشبِ النَّضِرِ في ظِلِّ نَخلَةٍ. وَلَمّوا الثِّمارَ النّاضِجَةَ الَّتي سَقَطَت مِنَ الشَّجَرَةِ عَلى الأَرضِ، ثُمَّ أَخرَجَ كُلٌّ مِنهُم مِن جَيبِهِ قِطعَةَ خُبزٍ وَتَناوَلَها بِفَرَحٍ.



2

بَعدَما أَنهَوا وَجبَتَهُم، غَفَوا بُرهَةً، وَلكِنَّهُم استَيقَظوا مُنتَفِضينَ عَلى ما يُشبِهُ الثُّغاءَ. وَهُم يَلتَفِتونَ إلى مَصدَرِ الصَّوتِ، شاهَدوا شَخصًا كانَ يَسيرُ إلى جانِبِ الطَّريقِ، مُمسِكًا خَروفًا بِطَرَفِ حَبلٍ. وَسُرعانَ ما أَسالَت رُؤيَةُ الحَيَوانِ لُعابَهُم، فَسَأَلَ غسّانُ:

– أَلَيسَ هذا مالِكًا الخَيّاطَ؟ وَلكِن إلى أَينَ يَذهَبُ مَعَ هذا الخَروفِ البَدينِ؟

- إنَّهُ حَقًّا هُوَ، أجابَ جِحا. سَمِعْتُ أَنَّهُ سَيُزَوِّجُ ابنَتَهُ هذا المَساءَ. لا شَكَّ في أَنَّهُ اشتَراهُ كَي يُعِدَّ وَليمَةً لِلمُناسَبَةِ.

- يَستَطيعُ أَن يُطعِمَ عِشرينَ شَخصًا عَلى الأَقَلِّ. أَضافَ مُرادٌ وَهوَ يُحَدِّقُ في الحَيَوانِ.

- ربِّي، أَشفِقْ عَلَينا! صاحَ غَسّانُ. لَسْنا نَأكُلُ إلّا بَلَحًا وَخُبزًا جافًّا مُنذُ ثَلاثَةِ أَيّامٍ!

- لا شَيءَ يُلزِمُنا مُتابَعَةَ الحِميَةِ. أَشارَ جِحا بِخُبثٍ.

- ماذا تُريدُ أَن تَقولَ؟ سَأَلَ مُرادٌ.

- فَلنَخطُفْ هذا الخَروفَ، هَمَسَ جِحا. هكَذا، سَنُعِدُّ وَليمَةً لِعِدَّةِ أَيّامٍ.

- نَسرِقُهُ؟! صَرَخَ غَسّانُ. أَنتَ تَمزَحُ! لا أُريدُ أَن أُجلَدَ في السّاحَةِ العامَّةِ!

- أُشاطِرُكَ الرَّأيَ، قالَ مَرادٌ. لَيسَ جَلّادُ الخَليفَةِ

بِرَؤوفٍ، كَما هُوَ مَعروفٌ.

– وَلكِن مَن يَتَكَلَّمُ عَنِ السَّرِقَةِ؟ قالَ جِحا. لَدَيَّ أَفضَلُ فِكرَةٍ عَلى الإطلاقِ. إنِ اتَّبَعْتُم تَعليماتي حَرفِيًّا، فَلَن يَستَطيعَ أَحَدٌ اتِّهامَنا بِالسَّرِقَةِ.

شَرَحَ جِحا خُطَّتَهُ بِالتَّفصيلِ، أَمامَ رَفيقَيهِ اللَّذَينِ كانا يُصغِيانِ بِاهتِمام. وَعِندَما أَنهى كَلامَهُ، صَرَّحَ مُرادٌ:

– فِكرَتُكَ مُهِمَّةٌ، وَلكِن أَتَعتَقِدُ أَنَّ مالِكًا ساذَجٌ إلى حَدٍّ أَن يُخدَعَ بِهذا الشَّكلِ؟

– أَعرِفُهُ جَيِّدًا، أَجابَ جِحا. أَنا واثِقٌ مِن أَنَّهُ سَيَقَعُ في الفَخِّ بِسُهولَةٍ.

– إذًا، مَن سَيَتَحَدَّثُ إلَيهِ أَوَّلًا؟ سَأَلَ مُرادٌ.

– إذهَبْ أَنتَ أَوَّلًا، أَجابَ جِحا. يَليكَ غَسّانُ. وَأَنا سَأَذهَبُ آخِرًا.

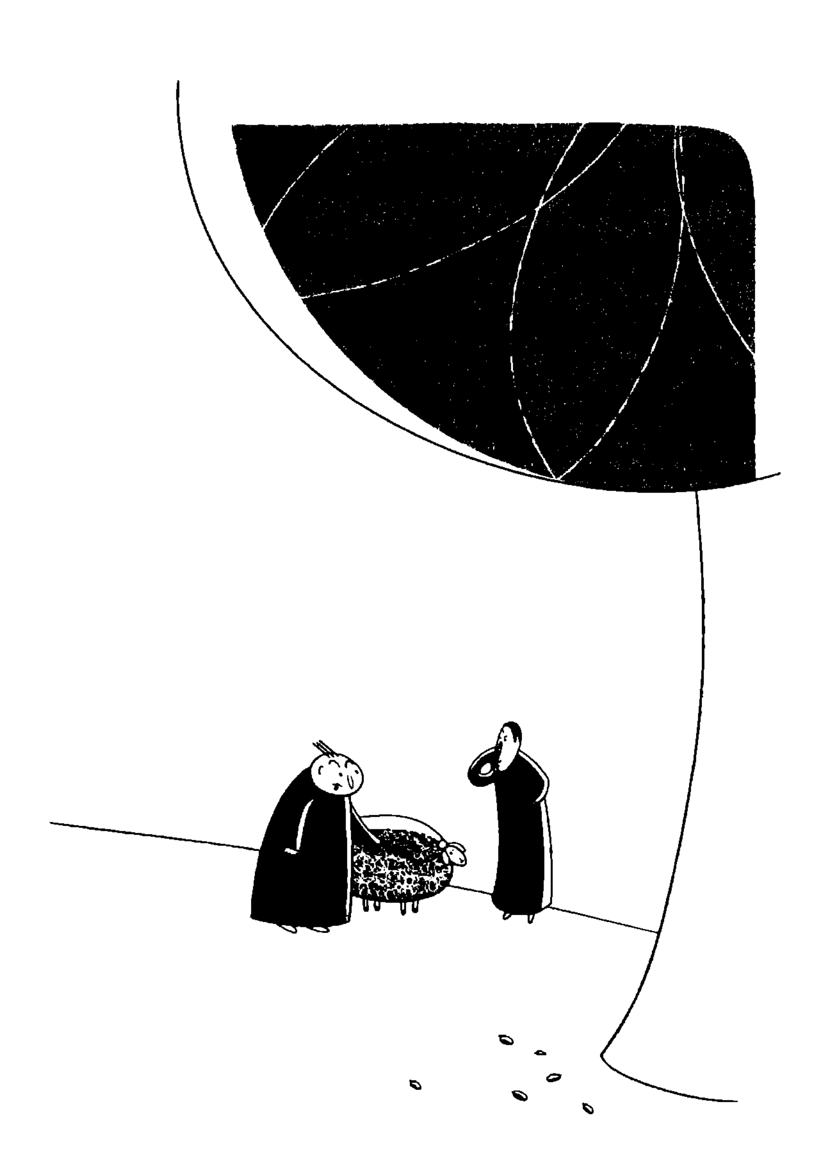
3

كانَ مالِكٌ يَسيرُ بِهُدوءٍ وَهوَ يُفَكِّرُ بِالوَليمَةِ الَّتي سَيُعِدُّها مَساءً، حينَ أَقبلَ إلَيهِ مُرادٌ وَقالَ لَهُ:

– السَّلامُ عَليكَ يا مالِكُ! ماذا تَفعَلُ هُنا؟

– وَعَليكَ السَّلامُ يا مُرادُ. كَما تَرى، إنَّني مُتَّجِهٌ نَحوَ المَدينَةِ. عَلَيَّ أَن أَصِلَ قَبلَ اللَّيلِ.

– أَتَنتَهِزُها فُرصَةً كَي تُرَوِّضَ كَلبَكَ؟ يا لَكَ مِن سَيِّدٍ طَيِّبٍ!



– كَلبي؟! قالَ مالِكٌ وَهوَ يَنظُرُ مِن حَولِه. أَينَ تَرى كَلبًا؟!

– وَلكِنَّهُ مَربوطٌ بِطَرَفِ حَبلِكَ! قالَ مُرادٌ بِذُهولٍ.

إستَدارَ مالِكٌ، وَنَظَرَ إلى الحَيَوانِ الَّذي كانَ يُمسِكُهُ.

– ولكِن، أَلا تَرى أَنَّهُ خَروفٌ؟! لَقَدِ اشتَرَيْتُهُ بِمُناسَبَةِ زَواجِ ابنَتي.

بَدا مُرادٌ قَلِقًا وَقالَ:

– عَزيزي مالِكًا، أَنصَحُكَ بِأَن تَخَفِّفَ قَليلًا مِن أعمالِ الخِياطَةِ. فَقَد ضَعُفَ نَظَرُكَ كَثيرًا مُنذُ لِقائِنا الأَخيرِ.

– ما هذا الهُراءُ الَّذي تَقولُهُ؟! نَظَري جَيِّدٌ جِدًّا... هذا أَنتَ مَن عَلَيهِ أَن يَرتاحَ!

وَابتَعَدَ مالِكٌ عَن مُرادٍ مِن دونِ أَن يُوَدِّعَهُ. وَلكِنَّهُ ما كادَ يَسيرُ مِئَةَ مِترٍ حَتّى التَقى غَسّانَ.

– السَّلامُ عَلَيكَ يا مالِكُ! كَم أَنا سَعيدٌ بِرُؤيَتِكَ! إلى أَينَ أَنتَ ذاهِبٌ هكَذا؟

- وَعَلَيكَ السَّلامُ يا غَسّانُ. أَنا ذاهِبٌ إلى المَدينَةِ كَما تَرى.

- بِالمُناسَبَةِ، أُريدُ تَهنِئَتَكَ. لَقَد بَلَغَني أَنَّكَ سَتُزَوِّجُ ابنَتَكَ. أُنقُلْ إلى العَروسَينِ أُمنِيَتي لَهُما بِالسَّعادَةِ! آمُلُ أَنَّكَ استَعدَدْتَ لِوَليمَةٍ بِحَجمِ الحَدَثِ.

- أَجَل، أَنوي أَن أُعِدَّ هذا الخَروفَ طَعامًا.

- عَن أَيِّ خروفٍ تَتَحَدَّثُ؟

إمتَقَعَ وَجهُ مالِكٍ فَجأَةً، فَقالَ مُتَلَعثِمًا:

- وَلكِن... عَن هذا المَربوطِ بِطَرَفِ حَبلي!

حَدَّقَ فيهِ غَسّانُ بِذُهولٍ.

- أَعتَقِدُ أَنَّكَ تُجهِدُ نَفسَكَ في العَمَلِ مُؤَخَّرًا. فَهذا المَربوطُ بِطَرَفِ حَبلِكَ لَيسَ خَروفًا، إنَّهُ كَلبٌ!

- وَلكِن ما بِكُم جَميعًا! هَل أَصبَحْتُم مَجانينَ؟

وَذَهَبَ وَهوَ يَتَفَوَّهُ بِجُمَلٍ غَيرِ مَفهومَةٍ.

4

عِندَما التَقى جِحا بَعدَ دَقائِق، هَرَعَ مالِكٌ نَحوَهُ صائِحًا:

- جِحا، صَديقي! كَم أَنا سَعيدٌ بِرُؤيَتِكَ! لَو سَمَحْتَ، أَجِبْ عَن سُؤالي: الحَيَوانُ المَربوطُ بِطَرَفِ حَبلي، أَخَروفٌ هُوَ أَم كَلبٌ؟

كانَ الجَوابُ الوَحيدُ أَن رَمَقَ جِحا سائِلَهُ بِنَظرَةٍ مِلؤُها العَجَبُ.

- وَلكِن ماذا هُناكَ؟ لِماذا لا تُجيبُ؟ سَأَلَ مالِكٌ مَذهولًا.

بَعدَ لَحظَةٍ مِنَ الصَّمتِ، سَأَلَ جِحا:

– هَل تَسعى عَبرَ الصُّدفَةِ إلى السُّخرِيَةِ مِنّي؟

– وَلكِن، حَتمًا لا! أَعرِفُ أَنَّكَ رَجُلٌ عاقِلٌ! وَلِذلِكَ أَطرَحُ عَلَيكَ السُّؤالَ!

شَرَحَ لَهُ مالِكٌ ما حَصَلَ في لِقاءَيهِ السّابِقَينِ، وَأَعلَمَهُ بِالحَيرَةِ الَّتي غَرِقَ بِها. وَما إن أَنهى كَلامَهُ حَتّى قالَ جِحا:

– صَحيحٌ إذًا أَنَّ عَمَلَ الإبرَةِ الطَّويلَ يُتلِفُ العَينَينِ. فَأَنتَ غَيرُ قادِرٍ أَن تَقولَ لي ما إذا كانَ المَربوطُ بِطَرَفِ هذا الحَبلِ خَروفًا أَم كَلبًا.

– كُنْتُ أَعتَقِدُ أَنَّهُ خَروفٌ! وَلا سِيَّما أَنَّ مَن باعَني إيّاهُ راعٍ! وَلكِن بَعدَ لِقائي مُرادًا وَغَسّانَ، لَم أَعُدْ أَعرِفُ شَيئًا!

– قُلْ لي، مالِكُ، هَل كانَ هذانِ الرَّجُلانِ مَعًا عِندَما تَحَدَّثْتَ إلَيهِما؟

– كَلّا لَم يَكونا مَعًا. لَم أَلتَقِهِما في الوَقتِ نَفسِهِ. لِمَ هذا السُّؤالُ؟

– كَي تَفهَمَ أَنَّهُما كانا آنَذاكَ يَقولانِ الحَقيقَةَ. فَمِن غَيرِ المَعقولِ أَن يَرتَكِبَ شَخصانِ، لَم يُؤَثِّرْ أَحَدُهُما في الآخَرِ، الخَطَأَ نَفسَهُ.

بَدا مالِكٌ فَجأَةً مَهزومًا، وغَيرَ قادِرٍ عَلى الحِراكِ. فَتابَعَ مُحاوِرُهُ:

– هَيّا، لا تَقلَقْ. قَد يَحصُلُ هذا لِأَيِّ شَخصٍ إثرَ التَّعَبِ. فَلنَستَرِحْ لَحظَةً، سَتَشعُرُ لاحِقًا بِالتَّحَسُّنِ.

تَوَجَّهَ الرَّجُلانِ لِلجُلوسِ في ظِلِّ نَخلَةٍ.

كانَ مالِكٌ عَلى حافَّةِ البُكاءِ، وَفيما جِحا يَبذُلُ ما في وُسعِهِ كَي يَرفَعَ مَعنَوِيّاتِهِ، تَسَلَّلَ مُرادٌ خَلفَ ظَهرِ مالِكٍ، مُنتَهِزًا عَدَمَ انتِباهِهِ، وَقَطَعَ الحَبلَ الَّذي كانَ الخَروفُ مَربوطًا بِهِ، وَحَمَلَ الحَيَوانَ بَينَ ذِراعَيهِ، وَتَوارى مِن دونِ

أَن يُحدِثَ ضَجَّةً.

عِندَما صَحا مالِكٌ مِن غَفلَتِهِ، نَهَضَ الرَّجُلانِ لِلذَّهابِ، وَلكِنَّ الخَيّاطَ، ما إن رَأى أَنَّ حَيَوانَهُ قَدِ اختَفى، حَتّى أَجهَشَ بِالبُكاءِ. لِلحالِ، قالَ لَهُ جِحا:

– هَيّا، اهدَأْ، حَرِيٌّ بِكَ أَن تَبتَهِجَ.

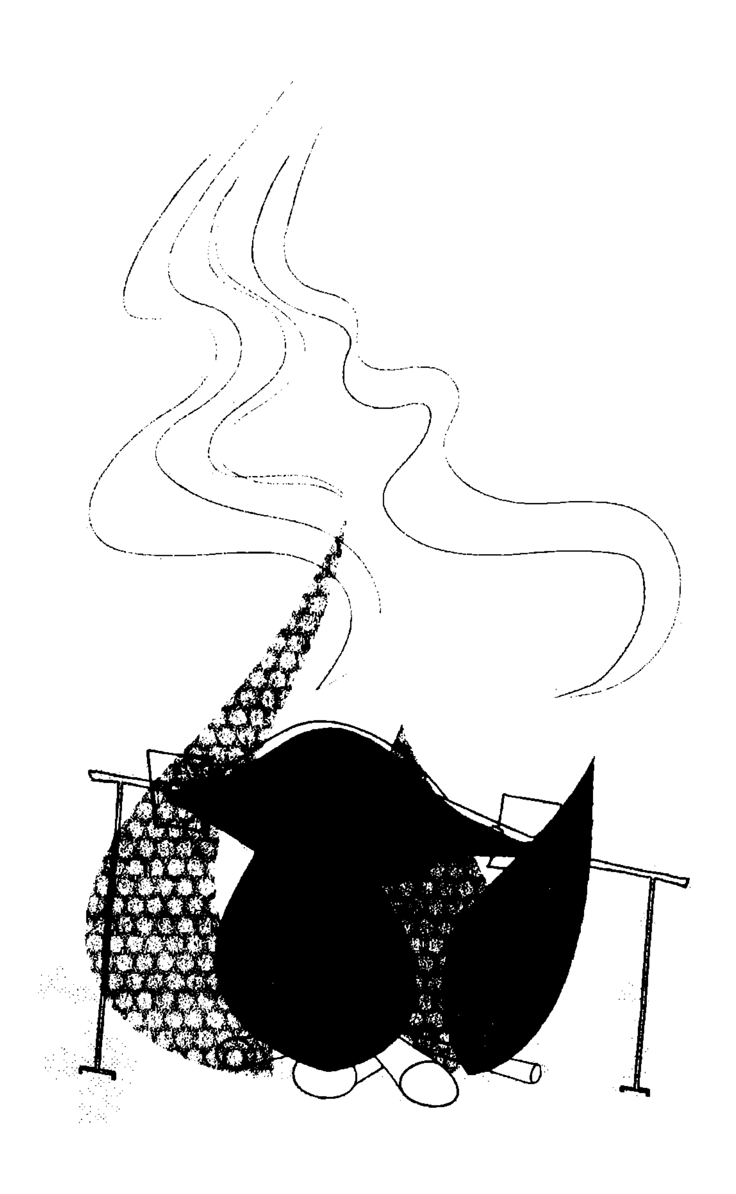
فَقالَ مالِكٌ وَهوَ يَئِنُّ:

– أَن أَبتَهِجَ! لِمَ عَلَيَّ أَن أَبتَهِجَ؟

– لِأَنَّ هذا دَليلٌ إِضافِيٌّ عَلى أَنَّهُ كَلبٌ. هَل سَبَقَ لِخَروفٍ أَن قَطَعَ رِباطَهُ وَهَرَبَ؟

– بِرَبّي، أَنتَ مُحِقٌّ يا جِحا. عَلى الأَقَلِّ أَنا مُتَأَكِّدٌ مِن ذلِكَ الآنَ. آهِ مِن ذاكَ الرّاعي اللَّعينِ الَّذي خَدَعَني بِهذِهِ السُّهولَةِ! لَن أَسكُتَ عَلى الأَمرِ، أُؤَكِّدُ لَكَ هذا! عَلى أَيِّ حالٍ، لَقَدِ اتَّخَذْتُ القَرارَ، سَأَعودُ لِرُؤيَتِهِ فَورًا!

وَذَهَبَ مِن دونِ أَن يُضيفَ شَيئًا.



خَروفٌ أم كلبٌ؟

ما إنِ ابتَعَدَ، حَتّى ذهَبَ جِحا لِيَنضَمَّ إلى رَفيقَيهِ اللَّذَينِ كانا قَد أَشعَلا النّارَ.

أَعَدَّ الشُّرَكاءُ الثَّلاثَةُ وَليمَةً فاخِرَةً، وَالتَهَموا الخَروفَ بِلَمحِ البَصَرِ. وَفيما كانوا يَستَعِدّونَ لِلتَّمَدُّدِ تَحتَ إحدى الأَشجارِ كَي يَهضِموا وَجبَتَهُمُ الرّائِعَةَ، رَكَضَ رَجُلٌ غَريبٌ نَحوَهُم. بَدا القَلَقُ واضِحًا عَلَيهِ.

– إخوَتي، أَبحَثُ عَن مالِكٍ الخَيّاطِ، أَلَم تَرَوهُ؟

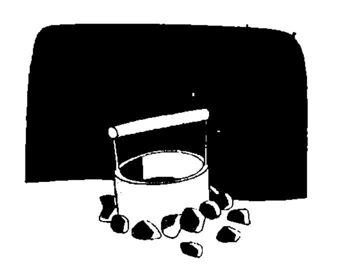
تَبادَلَ الأَصدِقاءُ الثَّلاثَةُ نَظَراتِ الحَذَرِ، ثُمَّ أَجابَ جِحا:

– كَلّا، وَلكِن، لِماذا تَبحَثُ عَنهُ؟

– كَي أَمنَعَ وُقوعَ كارِثَةٍ! لَقَد بِعْتُهُ خَروفًا، ناسِيًا تَمامًا أَنَّ الحَيَوانَ مَريضٌ! إن تَناوَلَ المَدعُوّونَ لُقمَةً واحِدَةً مِن لَحمِهِ، فَلَن يَمضِيَ وَقتٌ طَويلٌ حَتّى تَدفَعَ بُطونُهُمُ الثَّمَنَ!

نَظَرَ الرِّجالُ الثَّلاثَةُ بَعضُهُم بَعضًا مُرتَعِبينَ. وَبَدَأَت تَنتابُهُم بَوادِرُ الغَثَيانِ.

الحَسودُ



عَن حِكايَةِ الحاسِدِ وَالـمَحسودِ مِن كِتابِ ألفِ لَيلَةٍ وَلَيلَةٍ.

1

في قَديمِ الزَّمانِ، كانَ رَجُلٌ كَثيرُ التَّقوى يَعيشُ في البَصرَةِ، يُدعى نَصرَ الدّينِ. أُشتُهِرَ بِطيبَتِهِ وَمَعرِفَتِهِ وَحِكمَتِهِ. كانَ سُكّانُ المَدينَةِ كُلُّهُم يُحِبّونَهُ، وَمِنهُم مَن كانَ يَزورُهُ طالِبًا النُّصحَ. هذا فَضلًا عَن أَنَّ بَيتَهُ كانَ مَلجَأً لِأَكثَرِ النّاسِ فقرًا، حَيثُ يَجِدونَ، في الصَّيفِ كَما في الشِّتاءِ، الغِذاءَ وَالرّاحَةَ.

غَيرَ أَنَّ نَصرَ الدّينِ لَم يَكُنْ رَجُلًا سَعيدًا. لِأَنَّ

شَخصًا يَغارُ مِنهُ وَيَكُنُّ لَهُ الكُرهَ، كانَ يَعيشُ أَمامَ بَيتِهِ. تَأَلَّمَ الرَّجُلُ الحَكيمُ بِشِدَّةٍ لِإخفاقِهِ في مَعرِفَةِ دَواعي هذا العَداءِ. وَلَقَد حاوَلَ مِرارًا أَن يَكسِبَ صَداقَةَ جارِهِ، إلّا أَنَّ وَسيمًا - هذا ما كانَ يُدعى بِهِ - كانَ يُمعِنُ في كُرهِهِ لَهُ، مِن دونِ أَن يُهمِلَ فُرصَةً لِاغتِيابِهِ وَإِهانَتِهِ عَلانِيَةً.

ذاتَ يَومٍ، قَرَّرَ نَصرُ الدّينِ أَن يَبتَعِدَ عَن هذا الرَّجُلِ لِأَنَّهُ لَم يَعُدْ قادِرًا عَلى تَحَمُّلِ الوَضعِ. فَباعَ بَيتَهُ، وَذَهَبَ لِلإقامَةِ في مَكانٍ ناءٍ مِنَ القَريَةِ، في مَسكَنٍ مُتَواضِعٍ مُحاطٍ بِبُستانٍ صَغيرٍ.

بِسُرعَةٍ فائِقَةٍ، ذاعَ صيتُ الرَّجُلِ الحَكيمِ في القُرى المُجاوِرَةِ كُلِّها، حَتّى إِنَّ مَنزِلَهُ أَصبَحَ مَحَجًّا، يَتَوافَدُ إِلَيهِ المُؤمِنونَ جَماعاتٍ مِنَ الصَّباحِ حَتّى المَساءِ، لِاستِشارَةِ الرَّجُلِ التَّقِيِّ، وَنَيلِ العِلاجِ، أَو لِلإصغاءِ إلى

كَلامِهِ المُفعَمِ بِالحَقِّ. كانَ نَصرُ الدّينِ يَستَقبِلُ الجَميعَ بِالعَطفِ نَفسِهِ، وَلَم يَضِنَّ بِعَونِهِ عَلى أَيِّ سائِلٍ قَطُّ. وَمَساءً، مَعَ خُلُوِّ بَيتِهِ مِنَ النّاسِ، كانَ يَتَوَجَّهُ إِلى عُمقِ البُستانِ، لَيسَ بَعيدًا عَنِ البِئرِ، وَيَركَعُ عَلى بِساطٍ صَغيرٍ كَي يُصَلِّيَ في العَراءِ.

لكِنَّ الجارَ القَديمَ لَم يَستَطِعْ أَن يَنساهُ. فَأَعمالُ الرَّجُلِ الحَكيمِ العَظيمَةُ كانَت قَد بَلَغَتِ البَصرَةَ، وَكانَ وَسيمُ كُلَّما سَمِعَ بِها، خَفَقَ قَلبُهُ حِقدًا وَغَضَبًا. في النِّهايَةِ، تَأَكَّدَ لَهُ أَنَّهُ لَن يَستَطيعَ أَن يَرتاحَ ما دامَ نَصرُ الدّينِ حَيًّا. فَقَرَّرَ قَتلَهُ.

إستَعلَمَ وَسيمُ عَن مَكانِ إقامَتِهِ، وَانطَلَقَ ذاتَ صَباحٍ، حامِلًا عَصًا شَبيهَةً بِتِلكَ الَّتي يَستَعمِلُها القَتَلَةُ في جَرائِمِهِم. كانَ اللَّيلُ قَد حَلَّ عِندَما وَصَلَ إِلى أَمامِ بَيتِ نَصرِ الدّينِ، الَّذي كانَ آنَذاكَ يَخرُجُ مِن مَنزِلِهِ، مُتَّجِهًا

إلى حَيثُ يُصَلّي عادَةً. وَمِن دونِ أَن يُحدِثَ ضَجَّةً، اختَبَأَ وَسيمُ خَلفَ شَجَرَةِ نَخلٍ لِكَي يُراقِبَ ضَحِيَّتَهُ. مَعَ اقتِرابِهِ مِنَ البِئرِ، رَكَعَ الحَكيمُ، وَأَخَذَ يُصَلّي ما يُمليهِ عَلَيهِ إيمانُهُ. عِندَئِذٍ، قَفَزَ وَسيمُ وَضَرَبَهُ بِالعَصا ضَربَةً عَنيفَةً عَلى الرَّأسِ. كانَتِ الصَّدمَةُ قَوِيَّةً، حَتّى إنَّ نَصرَ الدّينِ سَقَطَ أَرضًا مِن دونِ حِراكٍ، وَقَد سالَ مِن شَفَتَيهِ الدَّمُ. إنحَنى وَسيمُ يَفحَصُهُ، وَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ القَلبَ كانَ لا يَزالُ يَنبُضُ، فَقالَ في نَفسِهِ:

«لِهذا البائِسِ حَياةٌ عَنيدَةٌ، وَلكِن، لَيسَ لِوَقتٍ طَويلٍ.»

ثُمَّ حَمَلَ ضَحِيَّتَهُ، وَرَماها في البِئرِ، وَاختَفى في الظَّلامِ.



2

لِحُسنِ الحَظِّ، كانَ عِفريتانِ مُحسِنانِ يُقيمانِ في قَعرِ البِئرِ. وَعِندَما سَقَطَ نَصرُ الدّينِ، أَضعَفا هُبوطَهُ وَوَضَعاهُ بِرِفقٍ عَلى الأَرضِ. ظَلَّ الحَكيمُ فاقِدَ الوَعيِ لِبَعضِ الوَقتِ، وَلكِن، شَيئًا فَشَيئًا أَخَذَ يَسمَعُ مُقتَطَفاتٍ مِن حِوارٍ راحَ يَتَّضِحُ لَهُ:

– حَسَنًا، عَنبَرُ! لِحُسنِ الحَظِّ، كُنّا هُنا لِنَجدَتِهِ!

– لَقَد صَدَقْتَ، يا مَيمونُ!

– الفَضلُ يَعودُ إلَيكَ حَقًّا، فَلَو لَم تَكُنْ تُتابِعُ الحَدَثَ عِندَ حُدودِ البِئرِ، لَكانَ جَسَدُ هذا الرَّجُلِ المِسكينِ قَد تَحَطَّمَ لَدى سُقوطِهِ!

– كانَ مَوتُهُ سَيُعتَبَرُ خَسارَةً لا تُعَوَّضُ بِالنِّسبَةِ إلى سُكّانِ المَنطِقَةِ كُلِّهِم! لا سِيَّما أَنَّ السُّلطانَ سَيَزورُهُ غَدًا صَباحًا، عَلى ما سَمِعْتُ، كَي يَرجُوَهُ أَن يَشفِيَ ابنَتَهُ.

– حَقًّا؟ لَم أَكُنْ أَعلَمُ أَنَّ الأَميرَةَ نورَ النَّهارِ مَريضَةٌ. ماذا تُعاني بِالتَّحديدِ؟

– يُقالُ إنَّ العِفريتَ الشِّرّيرَ دَمدَمَ يُعَذِّبُها. لَقَد أُغرِمَ بِها. وَبِما أَنَّها تَصُدُّهُ، فَهوَ يُضايِقُها لَيلًا نَهارًا.

– دَمدَمُ! فَلْيَكُنِ اللّهُ بِعَونِ الأَميرَةِ المِسكينَةِ! هذا العِفريتُ هُوَ الشَّرُّ عَينُهُ!

صَمَتَ مَيمونُ لَحظَةً ثُمَّ سَأَلَ:

- كَيفَ لِنَصرِ الدّينِ أَن يُقاوِمَ جَبَروتَ هذا الشَّيطانِ؟
- وَلكِن، عَزيزي مَيمونًا! ماذا عَن دُروسِكَ في السِّحرِ؟... في بَيتِ الرَّجُلِ التَّقِيِّ هِرٌّ صَغيرٌ ذو خُصلَةٍ بَيضاءَ عَلى قَذالِهِ. يَكفيهِ أَن يَقتَلِعَ مِنها سَبعَ شَعْراتٍ، فَيُحرِقَها، وَيَجعَلَ الأَميرَةَ تَشُمُّها، حَتّى يَتَوَقَّفَ دَمدَمُ لِلحالِ عَن مُضايَقَتِها.
- كُنْتُ قَد نَسيْتُ أَنَّ السِّحرَ يُمكِنُ أَن يَكونَ بِهذِهِ السُّهولَةِ!
- شَرطَ التَّمَتُّعِ بِذاكِرَةٍ مَقبولَةٍ.

مَعَ أَنَّ عَينَي نَصرِ الدّينِ كانَتا لا تَزالانِ مُقفَلَتَينِ، إلّا أَنَّ شَيئًا مِنَ الحِوارِ لَم يَفُتْهُ. أَمّا عَنبَرٌ فَتابَعَ:

- دَعْنا لا نُضَيِّعُ الوَقتَ، فَلنَرفَعْهُ إلى السَّطحِ.
- كُنْتُ سَأَقتَرِحُ عَلَيكَ هذا.

حَمَلَ العِفريتانِ نَصرَ الدّينِ، وَوَضَعاهُ بِرِفقٍ عَلى

الأَرضِ، بِجانِبِ حافَّةِ البِئرِ. ما إن ذَهَبا، حَتّى فَتَحَ الحَكيمُ عَينَيهِ، وَمِن دونِ أَن يُضَيِّعَ ثانِيَةً، عادَ إِلى بَيتِهِ، وَأَمسَكَ هِرَّهُ، وَاقتَلَعَ مِنهُ سَبعَ شَعْراتٍ بيضٍ، فَوَضَعَها في عُلبَةٍ صَغيرَةٍ دَسَّها في جَيبِهِ.

3

في اليَومِ التّالي، كَما تَوَقَّعَ عَنبَرٌ، حَضَرَ السُّلطانُ إلى بَيتِ الحَكيمِ بِصُحبَةِ الأَميرَةِ نورِ النَّهارِ. بَدَت سِحنَةُ الفَتاةِ شاحِبَةً، وَالخَدّانِ غائِرَينِ. وَعَلى الرَّغمِ مِن ذلِكَ، ظَلَّت بِجَمالٍ لا يُقارَنُ. عِندَما رَآها نَصرُ الدّينِ، شَعَرَ بِحَماسَةِ قَلبِهِ وَلَم يَستَطِعْ أَن يُحَوِّلَ نَظَرَهُ عَنها. لاحَظَتِ الأَميرَةُ ذلِكَ، إلّا أَنَّها تَجَنَّبَت نَظَراتِهِ خَجَلًا. قالَ السُّلطانُ:

– أَيُّها الرَّجُلُ الطّاهِرُ، جِئْتُ أَسأَلُكَ المُساعَدَةَ.

– أَعتَقِدُ أَنَّني أَعرِفُ ما تَرغَبُ فيهِ جَلالَتُكم. جَلالَتُكم تُريدُ أَن أُخَلِّصَ الأَميرَةَ مِن شَرٍّ غامِضٍ يُضنيها.

أَجابَ السُّلطانُ بِذُهولٍ:

– هُوَ حَقًّا كَذلِكَ! كُنْتُ أَجهَلُ أَنَّكَ نَبِيٌّ أَيضًا! هذا يَدعَمُ قَرارَ مَجيئي إلَيكَ. أَيُّها الطّاهِرُ، أَنتَ أَمَلي الأَخيرُ. إشفِ ابنَتي، تَنَلْ مُكافَأَةً لَم تَحظَ بِمِثلِها قَطُّ.

أَجلَسَ نَصرُ الدّينِ الأَميرَةَ، وَطَلَبَ مِنها أَن تُغلِقَ عَينَيها، وَقالَ لَها:

– مَهما حَصَلَ، لا تَخافي. كُلُّ شَيءٍ سَيَتَحَسَّنُ.

حينَئِذٍ تَوارى في المَطبَخِ، وَعادَ حامِلًا إناءً صَغيرًا مِنَ الفَخّارِ مَملوءًا بِجَمرٍ مُضطَرِمٍ. ثُمَّ أَخرَجَ مِن جَيبِهِ العُلبَةَ الصَغيرَةَ الَّتي تَحتَوي عَلى شَعْراتِ الهِرِّ، وَما إن رَماها عَلى الجَمرِ حَتّى حَمَلَ الإناءَ إلى أَنفِ الشّابَّةِ. دَوَّت قَرقَعَةٌ لِلحالِ وَغَطَّتِ الأَميرَةُ وَجهَها بِيَدَيها. لكِنَّها في

اللَّحظَةِ التّالِيَةِ، فَتَحَت عَينَيها بِبُطءٍ، شاعِرَةً بِالرّاحَةِ. كانَ دَمدَمُ العِفريتُ الشِّرّيرُ قَد رَحَلَ لِلتَّوِّ في سَحابَةٍ مِن دُخانٍ.

- ماذا جَرى لي؟ سَأَلَتِ الأَميرَةُ.

- لَقَد شُفيْتِ، أَجابَ نَصرُ الدّينِ بِبَساطَةٍ.

إثرَ هذِهِ الكَلِماتِ، انحَنى السُّلطانُ أَمامَ الحَكيمِ وَقالَ لَهُ:

- أَيُّها الطّاهِرُ، ما قُمْتَ بِهِ لا يُثَمَّنُ. كَيفَ لي أَن أُكافِئَكَ؟

لَم يَجرُؤْ نَصرُ الدّينِ عَلى الإجابَةِ بِشَيءٍ، وَلكِنَّ عَينَيهِ لَم تَستَطيعا أَن تَمتَنِعا عَنِ الإحاطَةِ بِالأَميرَةِ. سُرعانَ ما لاحَظَ السُّلطانُ ذلِكَ، فَسَأَلَ:

- يا ابنَتي، هَل تَقبَلينَ هذا الرَّجُلَ زَوجًا لَكِ؟

إحمَرَّتِ الأَميرَةُ، وَمَعَ أَنَّها لَم تَجرُؤْ بِدَورِها عَلى الإجابَةِ، إلّا أَنَّ كَلِمَةَ «نَعَم» أَفلَتَت مِن شَفَتَيها كَالهَمسِ.

فَأَضافَ السُّلطانُ لِلحالِ:

- حَسَنًا، أُعلِنُكُما زَوجًا وَزَوجَةً.



4

بَعدَ عِدَّةِ أَيّامٍ، أُقيمَ لِلمُناسَبَةِ احتِفالٌ عَظيمُ الأُبَّهَةِ في القَصرِ، وَقَدِمَ النّاسُ في الأَيّامِ التّالِيَةِ مِن كُلِّ حَدَبٍ وَصَوبٍ لِتَهنِئَةِ العَروسَينِ الجَديدَينِ.

في السَّنَةِ التّالِيَةِ، ماتَ السُّلطانُ، وَكانَ قَد أَصبَحَ عَجوزًا جِدًّا. وَبِما أَنَّهُ لا وَلِيَّ عَهدٍ لَهُ، أَصبَحَ نَصرُ الدّينِ المَلِكَ الجَديدَ. عَلى الرَّغمِ مِنَ الحِدادِ، تَلَقَّفَ الشَّعبُ الخَبَرَ بِسُرورٍ، إذ إنَّ سُمعَةَ الرَّجُلِ الطّاهِرِ كانَت قَد

عَمَّتِ البِلادَ.

بَعدَ تَسَلُّمِهِ الحُكمَ، لَم يُبَدِّلْ نصرُ الدّينِ شَيئًا مِن عاداتِهِ القَديمَةِ. فَكانَ يَعيشُ حَياةً في غايَةِ البَساطَةِ، وَيُثابِرُ عَلى إغداقِ العَونِ عَلى النّاسِ الَّذينَ يَلتَمِسونَهُ مِنهُ، وَمَساءً عِندَما تَنسَحِبُ حاشِيَتُهُ، يَذهَبُ إلى حَديقَةِ القَصرِ كَي يَتلُوَ صَلاتَهُ فيها. بِفَضلِهِ سُرعانَ ما أَصبَحَ لِلفُقَراءِ في البَلَدِ كُلِّهِ ما يَأكُلونَ وَيَرتَدونَ، بِحيثُ إنَّ أَحَدًا في المَملَكَةِ لَم يَعُدْ يَشعُرُ بِالجوعِ أَوِ البَردِ. وَقَد تَعَوَّدَ كَذلِكَ السَّفَرَ مِن مَدينَةٍ إلى مَدينَةٍ، كَي يُقَدِّرَ بِنَفسِهِ ظُروفَ حَياةِ رَعِيَّتِهِ، وَيُتيحَ لَها بِالمُناسَبَةِ نَفسِها أَن تَكتَشِفَ سُلطانَها الجَديدَ.

ذاتَ يَومٍ، لَدى مُرورِهِ في البَصرَةِ، وَهوَ يَتَوَسَّطُ حَشدًا يَحتَفي بِهِ مِنَ النّاسِ، رَأى رَجُلًا أَذهَلَهُ وَجهُهُ. سُرعانَ ما تَعَرَّفَ إلَيهِ. كانَ وَسيمًا جارَهُ الَّذي حاوَلَ

في الماضي قَتلَهُ. لِلحالِ، طَلَبَ نَصرُ الدّينِ مِن قائِدِ الحَرَسِ أَن يوقِفَهُ وَيَصطَحِبَهُ إلى القَصرِ.

إرتَعَبَ وَسيمٌ عِندَما أَوقَفَهُ الحُرّاسُ مِن دونِ أَن يَشرَحوا لَهُ السَّبَبَ.

في اليَومِ التّالي، عِندَما مَثُلَ أَمامَ السُّلطانِ، كانَ ذُهولُهُ شَديدًا، فَلَم يَستَطِعْ أَن يَنزِعَ عَينَيهِ عَنِ الأَرضِ. وَكانَ عِملاقٌ أَبنوسِيُّ البَشَرَةِ، يَقِفُ إلى يَمينِ المَلِكِ، بِيَدِهِ سَيفٌ مَعقوفٌ. إنَّهُ الجَلّادُ.

عِندَما رَفَعَ وَسيمٌ عَينَيهِ أَخيرًا نَحوَ السُّلطانِ، أَفلَتَت مِنهُ صَرخَةُ رُعبٍ.

– وَلكِنَّكَ ذاكَ...

لَم يَستَطِعْ أَن يَتَلَفَّظَ بِأَيِّ كَلِمَةٍ أُخرى. فَقالَ نَصرُ الدّينِ:

– نَعَم، أَنا ذاكَ الَّذي صَرَعْتَهُ، وَرَمَيْتَهُ في قَعرِ بِئرٍ



مُنذُ زَمَنٍ بَعيدٍ. لكِنَّ اللّهَ بِعَدلِهِ تَعالى، لَم يَسمَحْ بِأَن أَموتَ.

في تِلكَ اللَّحظَةِ، أَرادَ وَسيمٌ أَن تَنشَقَّ الأَرضُ فَتَبتَلِعَهُ، لكِنَّ شَيئًا مِن هذا لَم يَحدُثْ؛ وَأَوشَكَ الجَلّادُ أَن يَتَقَدَّمَ وَيَجعَلَ رَأسَ وَسيمٍ، بِضَربَةٍ قَوِيَّةٍ مِن سَيفِهِ، يَتَدَحرَجُ إلى قَدَمِ العَرشِ. كانَ وَسيمٌ يَرتَجِفُ كَوَرَقَةٍ، عِندَما أَعلَنَ السُّلطانُ:

- فَليُعطَ هذا الرَّجُلُ المِسكينُ مِئَةَ قِطعَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، وَليُعَدْ إلى بَيتِهِ مَعَ مُواكَبَةٍ جَيِّدَةٍ.

إنهارَ وَسيمٌ إثرَ هذِهِ الكَلِماتِ، وَصاحَ في نَفسِهِ:

«هذا مُستَحيلٌ! يَجِبُ أَن أَكونَ مَيتًا!»

ثُمَّ رَأى الجَلّادَ يوقِفُهُ مُجَدَّدًا عَلى ساقَيهِ، وَيَضَعُ في يَدِهِ صُرَّةً كَبيرَةً مَلأى بِالقِطَعِ الذَّهَبِيَّةِ. فَتابَعَ السُّلطانُ:

- وَسيمُ، هذا الذَّهَبُ هُوَ هَدِيَّتي لَكَ. أَنتَ حُرٌّ الآنَ.

لكِنَّ الرَّجُلَ المِسكينَ لَم يَكُنْ يَسمَعُ شَيئًا، لِأَنَّهُ كانَ قَد جُنَّ.

وَما إن أَوصَلَهُ الحُرّاسُ إلى بَيتِهِ، حَتّى بَدَأَ يَهيمُ في شَوارِعِ البَصرَةِ، عاجِزًا عَنِ الِاهتِداءِ، وَحَتّى عَن تَذَكُّرِ اسمِهِ.

قيلَ إنَّهُ فَقَدَ عَقلَهُ تَمامًا!

حيلَةُ الخَليفَةِ



عَن مُغامَرَةٍ لِجِحا (مِنَ التُّراثِ الشَّفَهِيِّ)

1

ذاتَ يَومٍ، مَرِضَ الخَليفَةُ الطَّيِّبُ هارونُ الرَّشيدُ، وَاضطُرَّ إلى مُلازَمَةِ الفِراشِ لِأَسابيعَ طَويلَةٍ. وَلِأَنَّهُ كانَ رَجُلًا نَشيطًا جِدًّا، فَقَد أَصبَحَ عَكِرَ المِزاجِ وَساءَت حالَتُهُ، حَتّى اعتَقِدَ أَنَّ ساعَتَهُ قَد حانَت. كانَت زَوجَتُهُ المُفَضَّلَةُ شَمسُ النَّهارِ الأَكثَرَ قَلَقًا عَلَيهِ مِن دونِ شَكٍّ. كانَت تُمضي وَقتَها قُربَ سَريرِهِ تَبكي كَطِفلَةٍ لا شَيءَ يُلَطِّفُ حُزنَها.

ذاتَ يَومٍ، قالَ طَبيبٌ لِلخَليفَةِ:

– مَولايَ، كَي تُشفى، عَلَيكَ بِأَيٍّ ثَمَنٍ أن تَطرُدَ المَلَلَ، فَهوَ المَسؤولُ عَن آلامِكَ كُلِّها.

– وَماذا عَلَيَّ أَن أَفعَلَ؟

– عَلَيكَ بِبَساطَةٍ أَن تَتَسَلّى. هذا أَفضَلُ دَواءٍ لَكَ.

في اليَومِ عَينِهِ، استَقدَمَ الخَليفَةُ كَبيرَ وُزَرائِهِ جَعفَرَ، وَرَدَّدَ عَلى مَسمَعِهِ أَقوالَ الطَّبيبِ، فَقالَ الوَزيرُ:

– هذا الرَّجُلُ وافِرُ الحِكمَةِ، فَنَصائِحُهُ مُفعَمَةٌ بِالحَقِّ. وَالمَملَكَةُ لا تَفتَقِرُ إلى الشُّعَراءِ وَالأُدَباءِ القادِرينَ عَلى تَسلِيَتِكَ بِقِصَصِهِمِ الرّائِعَةِ. يُمكِنُكَ الاعتِمادُ عَلَيَّ في استِدعاءِ أَفضَلِهِم.

لَم يُخلِفْ كَبيرُ الوُزَراءِ بِوَعدِهِ. فَدَعا إلى القَصرِ أَرفَعَ أَهلِ العِلمِ شَأنًا مِمَّن كانَ يَعرِفُهُم، فَشَهِدَ ديوانُ الخَليفَةِ خِلالَ عِدَّةِ أَيّامٍ تَقاطُرَ عَدَدٍ لا يُحصى مِنَ الرُّواةِ

وَالشُّعَراءِ القادِمينَ مِن مُختَلِفِ أَنحاءِ المَملَكَةِ. كانَ بَعضُهُم يَتلونَ أَبياتًا احتِفاءً بِمَجدِ المَلِكِ وَعَظَمَتِهِ، وَبَعضُهُمُ الآخَرُ يُخبِرونَهُ قِصَصًا رائِعَةً مِن تَأليفِهِم. لِكِنَّ الأَيّامَ كانَت تَمضي مِن دونِ أَن تَتَحَسَّنَ صِحَّةُ الخَليفَةِ، فَدَعا كَبيرَ وُزَرائِهِ مُجَدَّدًا، وَقالَ لَهُ:

– جَعفَرُ، أَهلُ العِلمِ الَّذينَ أَتَيْتَ بِهِم ذَوو مَعرِفَةٍ واسِعَةٍ. لِكِنَّ أَحَدًا بَينَهُم لَم يَنجَحْ في تَسلِيَتي. أَلا تَعرِفُ شَخصًا يَستَطيعُ بِبَساطَةٍ أَن يُضحِكَني؟

– مَولايَ، أَعتَقِدُ أَنَّني أَعرِفُ رَجُلًا في المَدينَةِ اشتُهِرَ بِالمَقالِبِ الَّتي يُعِدُّها لِمُواطِنيهِ.

– ما اسمُ هذا الرَّجُلِ؟

– يُدعى جِحا، وَيُقيمُ في كوخٍ عَتيقٍ عِندَ مَدخَلِ المَدينَةِ.

– أَحضِرْهُ فَورًا.

- وَلكِن... مَولايَ، جِحا هذا فَقيرٌ جِدًّا. وَهوَ وَسِخٌ دائِمًا وَسَيِّئُ المَظهَرِ. وَيُحرِجُني أَن أَراهُ يَدخُلُ البَلاطَ هكَذا.

- حَسَنًا، اجعَلْهُ يَستَحِمُّ، وَليُعطَ مَلابِسَ جَديدَةً! هكَذا، يُصبِحُ أَهلًا لِلمُثولِ أَمامي.

سارَعَ الوَزيرُ في تَنفيذِ الأَمرِ، وَأُدخِلَ جِحا ديوانَ أَميرِ المُؤمِنينَ، الَّذي قالَ لَهُ:

- أَيُّها الرَّجُلُ الطَّيِّبُ، يَبدو أَنَّكَ تُحِبُّ أَن تُعِدَّ مَكائِدَ لِلنّاسِ الشُّرَفاءِ. حَسَنًا، لَقَدِ استَقدَمْتُكَ كَي تُخبِرَني بَعضًا مِن مَقالِبِكَ.

لَم يَتَمَنَّعْ جِحا، بَل شَرَعَ يَصِفُ بِالتَّفصيلِ أَشهَرَ الفِخاخِ الَّتي نَصَبَها لِقَومِهِ، وَكانَ كُلَّما تَقَدَّمَ في السَّردِ، ضَحِكَ الخَليفَةُ أَكثَرَ فَأَكثَرَ. وَما كانَ أَحيانًا يُنهي قِصَّةً حَتّى يَتَوَجَّبَ عَلَيهِ رِوايَتُها مُجَدَّدًا إِرضاءً لِلمَلِكِ، الَّذي

صاحَ أَخيرًا:

- جِحا! أُسكُتْ، أَرجوكَ... سَتَجعَلُني أَموتُ مِنَ الضَّحِكِ!

في الأَيّامِ التّالِيَةِ، راحَ صَديقُنا يَأتي إلى القَصرِ بِانتِظامٍ لِتَسلِيَةِ الخَليفَةِ، الَّذي استَعادَ صِحَّتَهُ وَبَهجَتَهُ في غُضونِ عِدَّةِ أَسابيعَ. وَرَغبَةً في مُكافَأَةِ صاحِبِ الفَضلِ، عَيَّنَهُ الخَليفَةُ مُهَرِّجَ البَلاطِ الرَّسمِيَّ.



2

كانَ الـمُهَرِّجُ يُؤَدّي مُهِمَّتَهُ عَلى أَتَمِّ وَجهٍ، وَكُلُّ مَن في القَصرِ يُقَدِّرونَهُ. وَذاتَ يَومٍ، بَعدَ أَن أَضحَكَ الـمَلِكَ بِشَكلٍ خاصٍّ، سَـأَلَهُ الـمَلِكُ:

– جِحا، قُلْ لي، هَل مِن أَحَدٍ في بَغدادَ لَـمّا يَقَعْ بَعدُ ضَحِيَّةَ مَكائِدِكَ؟

– هُناكَ شَخصٌ واحِدٌ، أَجابَ جِحا. إِنَّهُ جَلالَتُكَ.

غَيرَ مُنتَظِرٍ جَوابًا مُماثِلًا، نَظَرَ هارونُ الرَّشيدُ إِلَيهِ

بِمَكرٍ، ثُمَّ سَأَلَهُ مُجَدَّدًا:

– هَل تَجرُؤُ يَومًا عَلى إعدادِ مَقلَبٍ لي؟

– أَجرُؤُ يا مَولايَ، إذا وَعَدْتَني بِعَدَمِ الِاقتِصاصِ مِنّي، بَعدَ تَنفيذِهِ.

بَقِيَ الخَليفَةُ بِضعَ لَحَظاتٍ يُفَكِّرُ، ثُمَّ قالَ أَخيرًا:

– إن أَضحَكَني ذلِكَ، فَلَن يَكونَ لَدَيكَ ما تَخشاهُ.

بَعدَ بِضعَةِ أَيّامٍ، أَقبَلَ جِحا صَباحًا إلى الخَليفَةِ وَطَلَبَ مِنهُ مالًا. كانَ الخَليفَةُ في خِضَمِّ اجتِماعٍ مَعَ مُستَشاريهِ، وَلِأَنَّ مِزاجَهُ كانَ سَيِّئًا جِدًّا ذلِكَ اليَومَ، فَقَد طَرَدَهُ بِلُؤمٍ.

عادَ جِحا إلى بَيتِهِ غاضِبًا، فَقَد جَرَحَهُ سوءُ المُعامَلَةِ.

وَأَخبَرَ زَوجَتَهُ ما جَرى لَهُ، وَقالَ مُضيفًا:

– هذا يَستَوجِبُ الثَّأرَ.

فَصَرَخَت فاطِمَةُ:

- أَيُّها البائِسُ، تُريدُ الِانتِقامَ مِنَ الخَليفَةِ، سَيِّدِنا جَميعًا! لا شَكَّ في أَنَّكَ أَصبَحْتَ مَجنونًا لِكَي تَرغَبَ في أمرٍ كَهذا!

- أُريدُ أَن يَدفَعَ ثَمَنَ قِلَّةِ احتِرامِهِ! وَأَنتِ يا فاطِمَةُ سَتُساعِدينَني في تَحقيقِ ثَأري.

فَسَأَلَت وَهيَ تَرتَجِفُ:

- أَنا؟ كَيفَ يُمكِنُني ذلِكَ؟

- إذهَبي إلى شَمسِ النَّهارِ، وَارتَمي باكِيَةً عِندَ قَدَمَيها. قولي لَها إنَّني مُتُّ، وَإنَّكِ بِحاجَةٍ إلى مِئَةِ دينارٍ كَي تَدفَعي مَصاريفَ الدَّفنِ.

- مِئَةُ دينارٍ! وَلكِن، هذا كَثيرٌ جِدًّا مِن أَجلِ مَصاريفِ دَفنٍ! هَل تَعتَقِدُ أَنَّها سَتُعطيني مَبلَغًا كَهذا؟

- الكُلُّ يَعلَمُ أَنَّ شَمسَ النَّهارِ امرَأَةٌ كَريمَةٌ. وَأَنا عَلى ثِقَةٍ بأَنَّها لَن تَرفُضَ مُساعَدَةَ أَرمَلَةٍ حَزينَةٍ.

– وَلكِن، ماذا سَيَحصُلُ لاحِقًا عِندَما تَعرِفُ أَنَّني كَذَبْتُ عَلَيها؟

– لا تَشغَلي بالَكِ بِهذا. قومي بِما طَلَبْتُهُ مِنكِ فَقَط. مِن دونِ أَن تَجرُؤَ عَلى إضافَةِ شَيءٍ، وَضَعَت فاطِمَةُ حِجابًا أَسوَدَ عَلى رَأسِها، وَخَرَجَت.

بَعدَ ساعَةٍ، عادَت وَفي يَدِها صُرَّةٌ، فَأَثنى عَلَيها قائِلًا:

– أَحسَنْتِ. وَالآنَ حانَ دَوري.

وَخَرَجَ بِدَورِهِ.

3

عِندَما وَصَلَ جِحا إلى القَصرِ، كانَ ذلِكَ قُرابَةَ الظُّهرِ. وَعَلى الرَّغمِ مِن أَنَّ الخَليفَةَ كانَ لا يَزالُ مُجتَمِعًا بِمُستَشاريهِ، قاطَعَ المُهَرِّجُ الاجتِماعَ، وَارتَمى عِندَ قَدَمَيهِ.

– مَولايَ، قالَ باكِيًا، الحُزنُ يَعتَصِرُ قَلبي! عِندَما عُدْتُ مُنذُ قَليلٍ إلى بَيتي، تَألَّمْتُ إذ رَأَيْتُ زَوجَتي مَيتَةً!

– أَنا آسِفٌ حَقًّا لِسَماعِ الخَبَرِ، جِحا! ماذا حَصَلَ لَها؟

– عِندَما تَرَكْتُها هذا الصَّباحَ، كانَت تُعاني صُداعًا

أَليمًا. لا شَكَّ في أَنَّها ماتَت إثرَ جُلطَةٍ دِماغِيَّةٍ.

قالَ الخَليفَةُ بِحُزنٍ:

– فَليَرحَمِ اللّهُ نَفسَها، لَقَد كانَت، مِن دونِ شَكٍّ، امرَأَةً شُجاعَةً وَمُتَفانِيَةً.

وَبَعدَ صَمتٍ قَصيرٍ، أَضافَ:

– كَيفَ لي أَن أُخَفِّفَ مِن أَلَمِكَ؟

– مَولايَ، أَحتاجُ إلى مِئَةِ دينارٍ كَي أَدفَعَ مَصاريفَ الدَّفنِ.

مِن دونِ تَرَدُّدٍ، التَفَتَ الخَليفَةُ نَحوَ أَمينِ الصُّندوقِ، وَأَمَرَهُ بِأَن يَمنَحَ المُهَرِّجَ المَبلَغَ الَّذي يَحتاجُ إلَيهِ. أَخَذَ جِحا المالَ، وَشَكَرَ لِلمَلِكِ فَضلَهُ، وَعادَ إلى بَيتِهِ.

لاحِقًا، في النَّهارِ، عِندَما التَقى الخَليفَةُ شَمسَ النَّهارِ، فوجِئَ بِالحُزنِ يُغَطّي وَجهَها.

– ما الأَمرُ، يا عَزيزَتي؟



– لَقَد عَلِمْتُ لِلتَّوِّ خَبَرًا فَظيعًا. إنَّ جِحا الطَّيِّبَ الَّذي أَعادَ إلَيكَ عافِيَتَكَ، قَد ماتَ هذا الصَّباحَ!

فَتَحَ الخَليفَةُ عَينَيهِ واسِعًا، وَقالَ:

– أَنتِ مُخطِئَةٌ! إنَّ فاطِمَةَ زَوجَتَهُ هِيَ مَن تُوُفِّيَت! لَقَد جاءَني جِحا ظُهرًا يُعلِمُني الخَبَرَ، فَضلًا عَن ذلِكَ، أَعطَيْتُهُ مِئَةَ دينارٍ لِكَي يَتَمَكَّنَ مِن دَفعِ مَصاريفِ الدَّفنِ!

– وَلكِنَّ هذا مُستَحيلٌ! جاءَت فاطِمَةُ تَراني صَباحًا كَي تُعلِمَني خَبَرَ مَوتِ زَوجِها، وَبِناءً عَلى طَلَبِها، قَدَّمْتُ لَها مَبلَغًا مُماثِلًا مِن أَجلِ مَصاريفِ الجَنازَةِ!

تَبادَلَ الزَّوجانِ النَّظَراتِ، وَكُلٌّ مِنهُما أَكثَرُ ذُهولًا مِنَ الآخَرِ.

– في هذِهِ القِصَّةِ شَيءٌ مُبهَمٌ يا صَديقي!

– كُنْتُ عَلى وَشكِ أَن أَقولَ لَكِ هذا. فَلْنَذهَبْ فَورًا إلى بَيتِ جِحا. مُؤَكَّدٌ أَنَّنا سَنَعرِفُ الحَقيقَةَ.

4

قالَ جِحا وَهوَ يَتَأَمَّلُ الصُّرَّتَينِ المَوضوعَتَينِ عَلى الطّاوِلَةِ:

– لَقَد نَجَحَت خُطَّتي تَمامًا. أُنظُري إلى كُلِّ هذا المالِ. لَم أَكسِبْ قَطُّ مَبلَغًا كَهذا بِهذِهِ السُّرعَةِ!

لكِنَّ فاطِمَةَ، بَدَلَ أَن تُشارِكَ زَوجَها الفَرَحَ، انفَجَرَت بِالبُكاءِ، فَسَأَلَها:

– ماذا هُناكَ الآنَ؟

- لا تَتَسَرَّعْ بِالِابتِهاجِ، فَسُرعانَ ما سَيَقَعُ عَلَينا غَضَبُ الخَليفَةِ، وَسَيَكونُ وَخيمًا!

في تِلكَ اللَّحظَةِ، رَأى جِحا عَبرَ النّافِذَةِ، المَلِكَ وَزَوجَتَهُ يَتَّجِهانِ نَحوَهُما، وَيَتبَعُهُما عَبدٌ يَحمِلُ بِحِزامِهِ سَيفًا، فَصاحَ وَهوَ يَرتَجِفُ مُضطَرِبًا:

- يا إلهي، قُضِيَ عَلَينا!

نَظَرَت فاطِمَةُ بِدَورِها عَبرَ النّافِذَةِ، فَصاحَت وَهيَ تَسقُطُ عَلى رُكبَتَيها:

- كُنْتُ واثِقَةً بِأَنَّنا سَنُعاقَبُ! ماذا عَلَينا أَن نَفعَلَ الآنَ؟

- لَدَيَّ فِكرَةٌ. فَلنَتَمَدَّدْ عَلى الأَرضِ مُتَظاهِرَينِ بِالمَوتِ.

مِن دونِ انتِظارٍ، تَمَدَّدَ عَلى الأَرضِ وَتَوَقَّفَ عَنِ الحِراكِ. وَكَذلِكَ فَعَلَت زَوجَتُهُ.



عِندَما دَخلَ الخَليفَةُ الكوخَ، تَوَقَّفَ مَذهولًا أَمامَ هذا المَنظَرِ المُفاجِئِ، ثُمَّ قالَ لِشَمسِ النَّهارِ:

- عَجَبًا! كِلاهُما ماتَ إذًا.

لكِنَّهُ بَعدَما فَكَّرَ لَحظَةً، قالَ في نَفسِهِ:

«في الأَمرِ خُدعَةٌ، وَأَعتَقِدُ أَنَّني فَهِمْتُ. أَرادَ جِحا أَن يَنتَقِمَ مِنّي لِأَنَّني طَرَدْتُهُ هذا الصَّباحَ... حَسَنًا، انتَظِرْ قَليلًا، أَيُّها الخَبيثُ الحَقيرُ. سَأُبادِلُكَ الإساءَةَ بِالإساءَةِ نَفسِها!»

إستَدارَ هارونُ الرَّشيدُ نَحوَ زَوجَتِهِ، وَقالَ لَها بِصَوتٍ عالٍ:

- تَعالَي نُصَلّي مَعًا أَمامَ جُثَّتَي هذَينِ الشَّخصَينِ اللَّذَين رَحَلا باكِرًا جِدًّا.

عَلى الرَّغمِ مِن خَوفِها، اقتَرَبَت شَمسُ النَّهارِ، فَتَلَوا صَلاةً. ثُمَّ قالَ الخَليفَةُ وَهوَ يُمَلِّسُ شارِبَهُ:

- عَزيزَتي، في الأَمرِ شَيءٌ عَجيبٌ. مَهما يَكُنْ، لَم يَمُتِ الاثنانِ مَعًا في الوَقتِ عَينِهِ... أَدفَعُ مِئَةَ دينارٍ لِمَن يَستَطيعُ أَن يَقولَ لي أَيُّ مِنهُما ماتَ أَوَّلًا.

لَدى سَماعِهِ هذا، لَم يَستَطِعْ جِحا مُقاوَمَةَ التَّجرِبَةِ، فَقَد وَقَفَ قافِزًا وَصاحَ:

- إنَّهُ أَنا، مَولايَ!

عَلى الفَورِ، خَرَجَت شَمسُ النَّهارِ مِنَ الكوخِ وَهيَ تَصرُخُ، بَينَما أَطلَقَ هارونُ الرَّشيدُ قَهقَهَةً عالِيَةً. أَمّا فاطِمَةُ فَنَهَضَت بِدَورِها، وَرَمَقَتِ الخَليفَةَ بِنَظرَةٍ مِلؤُها الخَوفُ. لكِنَّ وَجهَ الخَليفَةِ شَحُبَ فَجأَةً. وَعِندَما رَآهُ جِحا هكَذا، ارتَعَدَت فَرائِصُهُ.

- أَنتَ كاذِبٌ! لَقَد أَمسَكْتُ بِكَ. كُنْتَ تُفَكِّرُ في خِداعي؟ حَسَنًا سَتَدفَعُ ثَمَنَ إهانَتِكَ.

ثُمَّ أَضافَ وَهوَ يَستَديرُ نَحوَ عَبدِهِ الَّذي كانَ يُرافِقُهُ:

– مَنصورُ، استَعِدَّ كَي تَقطَعَ رَأسَ هذا السّارِقِ.

إستَلَّ العَبدُ السَّيفَ مِن غِمدِهِ، فارتَمى جِحا عِندَ قَدَمَيِ الخَليفَةِ قائلًا:

– مَولايَ، كُنْتَ قَد وَعَدْتَ بِأَلّا تَقتَصَّ مِنّي يَومَ أُضحِكُكَ فيهِ! تَذَكَّرْ كَلامَكَ!

– أُسكُتْ! وَقِحُ! لَم أَسمَحْ لَكَ أَبَدًا بِسَرِقَتي!

– لكِن، مَولايَ! لَقَد أَضحَكْتُكَ، لا تَنسَ هذا!

كانَ مَنصورُ شاهِرًا سَيفَهُ، يَنتَظِرُ إشارَةً مِن سَيِّدِهِ كَي يَقطَعَ رَأسَ ضَحِيَّتِهِ. إلّا أَنَّ الخَليفَةَ لَم يَقُلْ شَيئًا. بَدا أَنَّهُ يُفَكِّرُ بِكَلِماتِ المُهَرِّجِ الأَخيرَةِ. مَرَّت ثَوانٍ هكَذا، وَكَأَنَّها دُهورٌ بِالنِّسبَةِ إلى المِسكينِ جِحا، الَّذي كانَ يَرتَجِفُ كَوَرَقَةٍ يَتَلاعَبُ بِها الهَواءُ، فَقالَ الخَليفَةُ أَخيرًا:

– حَسَنًا، فَلْيَكُنْ، أُسامِحُكَ هذِهِ المَرَّةَ. وَلكِن، إذا خَدَعْتَني ثانِيَةً، فَسَيَكونُ مِن مَصلَحَتِكَ أَن تُضحِكَني

أَكْثَرَ بَعدُ، إن شِئْتَ أَلّا تَموتَ.

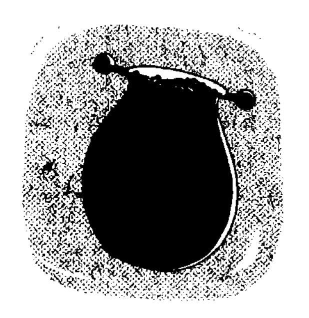
لَدى سَماعِهِ هذا، استَقامَ المُهَرِّجُ، وَاختَفَت دُموعُهُ سَريعًا، فَقالَ مَعَ ابتِسامَةٍ ماكِرَةٍ:

- مَولايَ، لا تَنسَ أَيضًا أَنَّ لي عَلَيكَ مِئَةَ دينارٍ.

رَدَّ الخَليفَةُ وَهوَ يُبادِلُهُ الابتِسامَ:

- سَتَحصُلُ عَلَيها.

الطِّفلُ القاضي



عَن حِكايَةِ عَليٍّ الأَعجَمِيِّ مِن كِتابِ أَلفِ لَيلَةٍ وَلَيلَةٍ

1

في عَهدِ الخَليفَةِ هارونَ الرَّشيدِ، كانَت مَدينَةُ بَغدادَ تَعُدُّ مِن بَينِ سُكّانِها بائِعَ سَجّادٍ ثَرِيًّا يُدعى عَلِيًّا. كانَ رَجُلًا في الخَمسينَ مِن عُمرِهِ تَقريبًا، رَمادِيَّ الشَّعرِ، غائِرَ الوَجنَتَينِ، وَأَرمَلَ يَعيشُ وَحدَهُ في بَيتِهِ الكَبيرِ، مُنذُ زَمَنٍ بَعيدٍ.

كانَ رَجُلًا طَيِّبًا وَمُحسِنًا، لا يَتَوانى في واجِباتِهِ الدّينِيَّةِ. وَلِأَنَّ تِجارَتَهُ كانَت تَدُرُّ عَلَيهِ المالَ الوَفيرَ، فَلَم

يُهمِلْ فُرصَةً مِن دونِ أَن يُساعِدَ فيها الفُقَراءَ.

ذاتَ صَباحٍ، وَهوَ في مَتجَرِهِ، أَعلَمَهُ زَبونٌ أَنَّ قافِلَةَ حُجّاجٍ تَمُرُّ بِالمَدينَةِ، كانَت تَتَّجِهُ في ذلِكَ اليَومِ عَينِهِ إلى الأَماكِنِ المُقَدَّسَةِ. وَبِما أَنَّ عَلِيًّا لَم يَستَطِعْ قَطُّ أَن يُسافِرَ لِلحَجِّ، فَقَد قَرَّرَ الاِنضِمامَ إلَيها في الحالِ. فَأَقفَلَ مَحَلَّهُ، وَسَلَّمَ أَحَدَ جيرانِهِ المَفاتيحَ، وَهَروَلَ مُسرِعًا إلى بَيتِهِ، حَيثُ جَمَعَ بِسُرعَةٍ مَلابِسَهُ، وَوَضَعَ بَعضَ المُؤَنِ في كيسٍ، وَأَقفَلَ أَبوابَ مَنزِلِهِ. لِكنَّهُ لَحظَةَ مُغادَرَتِهِ، تَذَكَّرَ أَنَّهُ لَم يَأخُذْ مالًا لِمَصاريفِ الطَّريقِ. فَفَتَحَ إذّاكَ خِزانَتَهُ، وَأَخرَجَ مِنها صُرَّةً مَملوءَةً بِكَمِّيَّةٍ كَبيرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، وَقالَ في نَفسِهِ:

«تَحتَوي هذِهِ الصُّرَّةُ عَلى أَكثَرَ مِمّا يَلزَمُني لِلرِّحلَةِ. الطُّرُقاتُ خَطِرَةٌ، وَقُطّاعُ الطُّرُقِ كَثيرونَ. يُستَحسَنُ أَن أَحمِلَ أَدنى الضَّروريِّ.»



إقتَطَعَ ما يَحتاجُ إلَيهِ مِن قِطَعِ الذَّهَبِ، ثُمَّ جَلَسَ لَحظَةً عَلى الأَرضِ، يُفَكِّرُ في مَخبَإٍ آمِنٍ لِما تَبَقّى لَهُ مِنها.

وَفَجأَةً، صَرَخَ:

«وَجَدْتُهُ!»

رَكَضَ إلى المَطبَخِ، وَحَمَلَ جَرَّةً مِنَ الفَخّارِ كانَت عَلى الرَّفِّ، نِصفُها مَملوءٌ بِالزَّيتونِ الأَخضَرِ. أَفرَغَ مُحتَواها في إناءٍ آخَرَ، وَوَضَعَ الذَّهَبَ في قَعرِ الجَرَّةِ، وَعَلى الذَّهَبِ، صَبَّ الزَّيتونَ مُجَدَّدًا في الجَرَّةِ. ثُمَّ قالَ في نَفسِهِ:

«يُستَحسَنُ وَضعُ كُلِّ شَيءٍ في مَكانٍ آمِنٍ.»

ثُمَّ حَمَلَ الجَرَّةَ الثَّقيلَةَ وَاتَّجَهَ بِها إلى بَيتِ صَديقِهِ حُسَينٍ، وَهوَ تاجِرٌ ثَرِيٌّ مِثلُهُ، يَعيشُ مَعَ زَوجَتِهِ في بَيتٍ رائِعٍ تُظَلِّلُهُ أَشجارُ نَخلٍ. إنَّهُ أَفضَلُ صَديقٍ لَهُ، وَأَكثَرُ مَن يَثِقُ بِهِ. وَلَدى وُصولِهِ، قالَ:

الطِّفلُ القاضي

- حُسَينُ، جِئْتُ أُوَدِّعُك. أَذهَبُ اليَومَ إلى مَكَّةَ. لَقَد بَدَأْتُ أَشيخُ، وَقَد تَكونُ هذِهِ هِيَ الـمَرَّةَ الأَخيرَةَ الَّتي تَتَسَنّى لي فيها فُرصَةُ الذَّهابِ إلى هُناكَ.

إرتَمى الرَّجُلانِ كُلٌّ بَينَ ذِراعَيِ الآخَرِ، وَتابَعَ عَلِيٌّ قائِلًا:

- صَديقي، جِئْتُ أَسأَلُكَ أَن تَحتَفِظَ لي، إلى حينِ عَودَتي، بِهذِهِ الجَرَّةِ الـمَملوءَةِ زَيتونًا أَخضَرَ. أَرى أَنَّ الاِحتِفاظَ بِها في مَطبَخي مُستَحيلٌ، فَكَما تَعلَمُ، البَيتُ الخالي تَزورُهُ الفِئرانُ دائِمًا. وَهذِهِ الحَيَواناتُ الصَّغيرَةُ الجائِعَةُ تَلتَهِمُ كُلَّ ما يَقَعُ تَحتَ أَسنانِها.

- حَتمًا، عَزيزي عَلِيًّا. سَوفَ أَضَعُ هذِهِ الجَرَّةَ في مَكانٍ بارِدٍ مِن قَبوِي، وَسَتَستَعيدُها حالَما تَعودُ مِن سَفَرِكَ.

وَدَّعَ عَلِيٌّ جارَهُ وَرَحَلَ.

2

ثَلاثُ سَنَواتٍ مَرَّت عَلى مُغادَرَةِ عَلِيٍّ بَغداد، وَلَم يَرِدْ أَيُّ خَبَرٍ عَنهُ. ذاتَ مَساءٍ، وَفيما كانَ حُسَينٌ وَزَوجَتُهُ لَيلى يَستَعِدّانِ لِتَناوُلِ العَشاءِ، قالَت لَيلى:

– حُسَينُ، لَقَد نَسيْتُ أَن أَضَعَ زَيتونًا عَلى المائِدَةِ. هَل تَتَلَطَّفُ بِالذَّهابِ إلى القَبوِ كَي تُحضِرَ بَعضًا مِنهُ؟

لَم يَعتَدِ الرَّجُلُ أَن يَرفُضَ طَلَبًا لِزَوجَتِهِ، فَأَخَذَ صَحنًا فارِغًا، وَنَزَلَ حالًا إلى القَبوِ. هُناكَ، تَوَجَّهَ نَحوَ جَرَّةِ

الزَّيتونِ، فَشَمَّرَ عَن ساعِدِهِ، وَأَدخَلَ يَدَهُ فيها.

كانَتِ الجَرَّةُ فارِغَةً.

«لا بَأسَ، قالَ في نَفسِهِ، سَنَمتَنِعُ عَنِ الزَّيتونِ هذا المَساءَ. غَدًا صَباحًا، أَذهَبُ إلى السّوقِ لِشِراءِ بَعضٍ مِنهُ.»

كانَ يَهُمُّ بِالصُّعودِ عِندَما تَوَقَّفَ فَجأَةً، وَقالَ في نَفسِهِ:

«في الواقِعِ، أَعتَقِدُ، عَلى ما أَذكُرُ، أَنَّ عَلِيًّا عَهِدَ إلَيَّ بِزَيتونٍ قَبلَ رَحيلِهِ. أَستَطيعُ أَن أَستَعيرَ مِنهُ بَعضَ الحُبوبِ كَي أَملأَ صَحني... وَلَن يَكونَ عَلَيَّ سِوى استِبدالِها غَدًا بِحُبوبٍ مُشتَراةٍ مِنَ السّوقِ.»

لِلحالِ، تَوَجَّهَ حُسَينٌ إلى حَيثُ كانَ قَد تَرَكَ جَرَّةَ صَديقِهِ، لكِنَّهُ ما إنِ اقتَرَبَ مِنها حَتّى أَبعَدَتهُ عَنها رائِحَةُ عَفَنٍ، فَقالَ صائِحًا:

«آهٍ! هذِه الحُبوبُ مُتَعَفِّنَةٌ! يَجِبُ رَميُها بِأَيِّ ثَمَنٍ!»

فَحَمَلَ الجَرَّةَ كَي يَرمِيَ مُحتَواها في صُندوقِ القُمامَةِ، غَيرَ أَنَّهُ تَرَنَّحَ خَطَأً، وَأَوقَعَها عَلى الأَرضِ فَتَحَطَّمَت. في الوَقتِ نَفسِهِ، وَمَعَ حُبوبِ الزَّيتونِ، تَدَحرَجَ سَيلٌ مِن قِطَعِ الذَّهَبِ نَحوَ قَدَمَيهِ. ظَلَّ حُسَينٌ بِضعَ لَحَظاتٍ مَذهولًا، وَقالَ في نَفسِهِ:

«أَفهَمُ الآنَ لِماذا عَهِدَ عَلِيٌّ إِلَيَّ بِجَرَّتِهِ. لَقد أَرادَ أَن يَضَعَ ثَروَتَهُ في مَأمَنٍ.»

ثُمَّ نَظَرَ إِلى الذَّهَبِ الَّذي كانَ يُغَطّي الأَرضَ، فَالتَمَعَت عَيناهُ بِبَريقٍ مِنَ الشَّرِّ، وَلَم يَستَطِعْ أَن يَمنَعَ نَفسَهُ مِنَ القَولِ هَمسًا:

«لَم أَكُنْ أَعرِفُ أَنَّ هذا العَزيزَ عَلِيًّا ثَرِيٌّ لِلغايَةِ.»

مِن دونِ أَن يُضَيِّعَ ثانِيَةً، جَمَعَ قِطَعَ الذَّهَبِ، وَوَضَعَها في كيسِ كَتّانٍ، وَأَخفاهُ في مَكانٍ ما مِنَ القَبوِ. ثُمَّ رَمى

الحُبوبَ الـمُتَعَفِّنَةَ، وَنَظَّفَ الأَرضَ، وَصَعِدَ بِهُدوءٍ عائِدًا إلى الـمَطبَخِ، وَكَأَنَّ شَيئًا لَم يَكُنْ، فَسَأَلَتهُ زَوجَتُهُ:

– وَلكِن، أَينَ الزَّيتونُ؟

– آهٍ، لَقَد نَفِدَ.

– وَلكِن، لِماذا إذًا تَأَخَّرْتَ إلى هذا الحَدِّ؟

– لَم أَجِدْ سِوى حُبوبٍ مُتَعَفِّنَةٍ. وَجَبَ عَلَيَّ التَخَلُّصُ مِنها وَتَنظيفُ الجَرَّةِ الَّتي كانَت تَحويها.

بَدا أَنَّ هذا الشَّرحَ قَد أَرضى لَيلى، فَلَم تَطرَحْ أَيَّ سُؤالٍ آخَرَ، بَل دَعَت زَوجَها لِلجُلوسِ إلى المائِدَةِ...

في اليَومِ التّالي، ذَهَبَ حُسَينٌ إلى السّوقِ، فَاشتَرى كَمِّيَّةً كَبيرَةً مِن حُبوبِ الزَّيتونِ الأَخضَرِ، وَلَدى عَودَتِهِ إلى بَيتِهِ، احتَفَظَ بِقَليلٍ مِنها لِنَفسِهِ، وَصَبَّ الجُزءَ الأَكبَرَ في جَرَّةٍ مُطابِقَةٍ تَمامًا لِجَرَّةِ عَلِيٍّ، كانَت في القَبوِ.

3

بَعدَ ذلِكَ بِعِدَّةِ أَسابيعَ، عادَ عَلِيٌّ أَخيرًا مِن رِحلَتِهِ.

ما كادَ يَصِلُ حَتّى هَرَعَ إلى جارِهِ، وَمَرَّةً أُخرى، ارتَمى الرَّجُلانِ كُلٌّ بَينَ ذِراعَيِ الآخَرِ. بَعدَ أَن تَبادَلا آخِرَ الأَخبارِ، سَلَّمَ حُسَينٌ صَديقَهُ جَرَّةَ الزَّيتونِ عَلى أَنَّها تِلكَ الَّتي كانَ قَدِ ائتَمَنَهُ عَلَيها عِندَ ذَهابِهِ.

مَعَ وُصولِهِ إلى بَيتِهِ، بَحَثَ عَلِيٌّ عَنِ الذَّهَبِ، لكِنَّهُ لَم يَجِدْ شَيئًا. وَقَبلَ أَن يَلتَقِطَ أَنفاسَهُ، عادَ راكِضًا إلى جارِهِ.

- حُسَينُ! كُنْتُ قَد خَبَّأْتُ في الجَرَّةِ قِطَعًا مِنَ الذَّهَبِ وَلَم تَعُدْ هُناكَ!

فَقالَ حُسَينٌ، مُدَّعِيًا الدَّهشَةَ:

- ماذا تَقولُ؟ بَعدَ ذَهابِكَ، وَضَعْتُ الجَرَّةَ في القَبوِ، وَقد بَقِيَت هُناكَ إلى حينِ عَودَتِكَ. لَم يَلمِسْها أَحَدُ.

صاحَ عَلِيٌّ:

- أَنتَ سارِقٌ! أَعِدْ إلَيَّ ذَهَبي وَإلّا ادَّعَيْتُ عَلَيكَ عِندَ القاضي!

- حَسَنًا، فَلْنَذهَبْ إلَيهِ مَعًا! وَلِلقاضي الكَلِمَةُ الفَصلُ!

في المَحكَمَةِ، أَصغى القاضي العَجوزُ بِاهتِمامٍ إلى رِوايَةِ عَلِيٍّ، وَعِندَما استَجوَبَ حُسَينًا، أَقسَمَ حُسَينٌ بِشَرَفِهِ أَنَّهُ لَم يَكُنْ يَعلَمُ بَتاتًا بِوُجودِ قِطَعِ ذَهَبٍ في الجَرَّةِ. وَبِما أَنَّ عَلِيًّا لَم يَنجَحْ في تَقديمِ دَلائِلَ تَدعَمُ اتِّهاماتِهِ، فَقَدِ اضطُرَّ القاضي إلى رَدِّهِ خائِبًا.



ما كادَت بِضعَةُ أيّامٍ تَمضي حَتّى انتَشَرَتِ القِصَّةُ في المَدينَةِ كُلِّها، وَبَلَغَت مَسمَعَ الخَليفَةِ. وَبِما أَنَّهُ كانَ بِطَبيعَةِ الحالِ يَثِقُ بِرِجالِ القانونِ لَدَيهِ، لَم يَجِدْ ما يُضيفُهُ إلى قَرارِ القاضي. وَلكِنَّ الأَسابيعَ مَرَّت، وَانقَسَمَ سُكّانُ بَغدادَ إلى فَريقَينِ، أَحَدُهُما يَدعَمُ حُسَينًا، وَالآخَرُ يَعتَبِرُهُ كاذِبًا. كانَتِ النُّفوسُ في كُلِّ مَكانٍ مُحتَدِمَةً، وَالرَّجُلانِ يَتَحَمَّلانِ اللَّومَ أَحيانًا، حتّى مِن أَصدِقائِهِما المُقَرَّبينَ.

ذاتَ مَساءٍ، فيما كانَ الخَليفَةُ يَجولُ في المَدينَةِ بِرِفقَةِ وَزيرِهِ جَعفَرَ، شاهَدَ ثَلاثَةَ صِبيَةٍ صِغارٍ يَستَمتِعونَ في حَديقَةٍ عامَّةٍ. فَتَوَقَّفَ يُشاهِدُهُم مُهتَمًّا بِلَعِبِهِم.

قالَ أَحَدُهُم لِلآخَرَينِ وَهوَ جالِسٌ عَلى صَخرَةٍ:

– سَأَكونُ أَنا القاضي، وَأَنتَ يا عُمَرُ سَتَقومُ بِدَورِ عَلِيٍّ، وَسالِمٌ بِدَورِ حُسَينٍ. تَفَضَّلْ يا عَلِيُّ. إعرِضْ عَلَيَّ قَضِيَّتَكَ!

لَدى سَماعِهِ هذِهِ الكَلِماتِ، أَصغى الخَليفَةُ بِانتِباهٍ.

بَدَأَ عَلِيٌّ يُخبِرُ القاضي القِصَّةَ الَّتي صِرْنا نَعرِفُها. ثُمَّ حانَ دَورُ حُسَينٍ الَّذي انطَلَقَ في مُرافَعَةٍ دِفاعِيَّةٍ مُطَوَّلَةٍ. عِندَما أَنهى الفَريقانِ سَردَهُما، قالَ القاضي لِعَلِيٍّ:

- أَرِني الجَرَّةَ الَّتي عَهِدَ إِلَيكَ صَديقُكَ بِها.

كانَ إناءٌ عَتيقٌ مَتروكًا في زاوِيَةٍ مِنَ الحَديقَةِ. سارَعَ عَلِيٌّ إِلى إِحضارِهِ وَوَضَعَهُ عِندَ قَدَمَيِ القاضي، الَّذي شَمَّرَ كُمَّهُ وَأَدخَلَ يَدَهُ في الإِناءِ وَتَظاهَرَ بِأَنَّهُ يُمسِكُ حَبَّةَ زَيتونٍ وَيَحمِلُها إِلى فَمِهِ.

- إم...! حُبوبُ الزَّيتونِ هذِهِ لَذيذَةٌ! قُلْ لي يا عَلِيُّ، كَم مَضى عَلى وُجودِها في هذِهِ الجَرَّةِ؟

- ثَلاثُ سَنَواتٍ.

فَقالَ القاضي:

- يا لَلعَجَبِ! هذِهِ الحُبوبُ في هذِهِ الجَرَّةِ مُنذُ ثَلاثِ سَنَواتٍ، وَعَلى الرَّغمِ مِن ذلِكَ لا تَزالُ لَذيذَةَ الطَّعمِ!

ثُمَّ استَدارَ نَحوَ حُسَينٍ:

- قُلْ لي يا حُسَينُ، هَل يُعقَلُ أَن يَبقى الزَّيتونُ صالِحًا لِلأَكلِ بَعدَ كُلِّ هذا الوَقتِ؟

لَم يُجِبْ حُسَينٌ. تابَعَ القاضي:

- هذا الزَّيتونُ طازَجٌ، لا شَكَّ في ذلِكَ. المَسأَلَةُ كُلُّها واضِحَةٌ: لَقَد رَمَيْتَ الزَّيتونَ المُتَعَفِّنَ الَّذي كانَ في الجَرَّةِ، وَاستَولَيْتَ عَلى قِطَعِ الذَّهَبِ المُخَبَّأَةِ في القَعرِ، ثُمَّ مَلَأْتَ الجَرَّةَ مُجَدَّدًا بِزَيتونٍ طازَجٍ.

بَعدَ صَمتٍ قَصيرٍ، أَعلَنَ القاضي:

- حُسَينُ، لِأَنَّكَ سَرَقْتَ عَلِيًّا، أَحكُمُ عَلَيكَ بِالسَّجنِ المُؤَبَّدِ.

إستَدارَ هارونُ الرَّشيدُ نَحوَ وَزيرِهِ وَهَمَسَ في أُذُنِهِ:

– جَعفَرُ، غَدًا صَباحًا، أَحضِرْ هذا القاضيَ الصَّغيرَ إلى القَصرِ، فَضلًا عَنِ القاضي الحَقيقِيِّ المُكَلَّفِ بِالقَضِيَّةِ. كَما أَحضِرْ حُسَينًا وَعَلِيًّا، وَاحرِصْ عَلى أَن تَقولَ لِعَلِيٍّ أَن يَأتِيَ بِجَرَّةِ الزَّيتونِ مَعَهُ.

4

صَباحَ اليَومِ التّالي، مَثُلَ الجَميعُ أَمامَ الخَليفَةِ الَّذي أَمسَكَ يَدَ الصَّغيرِ، وَأَجلَسَهُ بِجانِبِهِ، ثُمَّ قالَ مُتَوَجِّهًا إلى الرِّجالِ الثَّلاثَةِ:

- هُوَذا بَلاطُ العَدالَةِ.

وَأَضافَ مُشيرًا إلى الطِّفلِ:

- وَها هُوَ القاضي الَّذي سَيَحُلُّ النِّزاعَ القائِمَ بَينَكُما، يا حُسَينُ وَيا عَلِيُّ. أَعِدُ بِأَن أُصَدِّقَ على قَرارِهِ.

وَتابَعَ وَهوَ يَلتَفِتُ إلى الصَّبِيِّ:

– لا تَخَفْ يا صَغيري. البارِحَةَ مَساءً، في الـمَدينَةِ، وَأَنتَ تَلعَبُ مَعَ رِفاقِك، تَأَثَّرْتُ بِطَريقَتِكَ في تَجسيدِ شَخصِيَّةِ القاضي. أَسأَلُك بِبَساطَةٍ أَن تُؤَدِّيَ الدَّورَ نَفسَهُ اليَومَ.

تَحَلّى الطِّفلُ بِالجِدِّ عَلى الرَّغمِ مِن شُعورِهِ بِالخَجَلِ، وَسَأَلَ عَلِيًّا أَن يُخبِرَهُ قِصَّتَهُ، فَأَعادَ عَلِيٌّ ما صَرَّحَ بِهِ لِلقاضي قَبلَ بِضعَةِ أَسابيعَ. ثُمَّ حانَ دَورُ حُسَينٍ، فَتَلا رِوايَتَهُ لِلأَحداثِ. عِندَما أَنهى الرَّجُلانِ كَلامَهُما، أَمَرَ الطِّفلُ عَلِيًّا بِأَن يَضَعَ أَمامَهُ جَرَّةَ الزَّيتونِ. أَطاعَ عَلِيٌّ. فَأَمسَكَ الطِّفلُ حَبَّةَ زَيتونٍ وَتَذَوَّقَها، ثُمَّ قالَ:

– إم...! هذِهِ الحُبوبُ لَذيذَةٌ!

ثُمَّ استَدارَ نَحوَ عَلِيٍّ:

– قُلْ لي، مُنذُ مَتى هذِهِ الحُبوبُ في الجَرَّةِ؟



- مُنذُ ثَلاثَةِ أَعوامٍ.

فَقالَ الطِّفلُ:

- يا لَلعَجَبِ! هِيَ هُنا، في القَعرِ، مُنذُ ثَلاثَةِ أَعوامٍ، وَعَلى الرَّغمِ مِن ذلِكَ، ما زالَت لَذيذَةَ الطَّعمِ!

إثرَ هذِهِ الكَلِماتِ، بَدَأَ حُسَينٌ يَرتَجِفُ، أَمَّا الطِّفلُ فَاستَدارَ نَحوَهُ سائِلًا:

- بِمَ تُجيبُ؟ أَتَجِدُ الأَمرَ طَبيعِيًّا، أَن تَبقى حُبوبُ الزَّيتونِ صالِحَةً لِلأَكلِ بَعدَ وَقتٍ طَويلٍ؟ المَسأَلَةُ كُلُّها واضِحَةٌ: لَقَد رَمَيْتَ الزَّيتونَ المُتَعَفِّنَ، وَاستَولَيْتَ عَلى الذَّهَبِ، ثُمَّ مَلَأْتَ الجَرَّةَ مُجَدَّدًا بِزَيتونٍ طازَجٍ.

كانَ لِهذِهِ الكَلِماتِ وَقعُ الصَّدمَةِ عَلى حُسَينٍ. أَمّا القاضي الَّذي كانَ مُكَلَّفًا بِالقَضِيَّةِ فَقَد شَحُبَ لَونُهُ، بَينَما كانَ عَلِيٌّ يُحَدِّقُ بِالطِّفلِ بِعَينَينِ كَبيرَتَينِ مَفتوحَتَينِ.

إستَأنَفَ الطِّفلُ كَلامَهُ مُتَوَجِّهًا إلى الخَليفَةِ:

- مَولايَ، لَقَد قُمْتُ بِما طَلَبْتُموهُ مِنّي. أَمّا بِالنِّسبَةِ إلى إصدارِ حُكمٍ، فَأَعتَقِدُ أَنَّ هذا لَيسَ مِن شَأنِ طِفلٍ.

إبتَسَمَ الخَليفَةُ وَقالَ:

- يا صَغيري، إن كانَ هُناكَ مِن أَحَدٍ قادِرٍ عَلى أَن يَبسُطَ العَدالَةَ، فَهوَ حَقًّا أَنتَ.

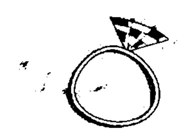
ثُمَّ استَدارَ نَحوَ القاضي الحَقيقِيِّ وَقالَ بِقَساوَةٍ:

- ما هُوَ قَولُكَ؟ كانَتِ الحَقيقَةُ أَمامَ عَينَيكَ وَلَم تَتَمتَّعْ بِالذَّكاءِ كَي تُمسِكَ بِها.

لَم يَتَفَوَّهِ الرَّجُلُ بِأَيَّةِ كَلِمَةٍ. كانَت عَيناهُ مُلتَصِقَتَينِ بِالأَرضِ خَجَلًا.

أُرغِمَ حُسَينٌ عَلى إعادَةِ الذَّهَبِ إلى عَلِيٍّ، ثُمَّ رُمِيَ بِهِ في السِّجنِ؛ كَما أُقيلَ القاضي مِن مَهامِّهِ، وَعُيِّنَ مَكانَهُ شَخصٌ أَكثَرُ شَبابًا؛ أَمّا الطِّفلُ فَقَد تَلَقّى هَدايا قَيِّمَةً مِنَ الخَليفَةِ.

خاتَمُ السُّلطانِ



عَن حِكايَةِ أبي قيرَ الصَّبّاغِ وَأبي صيرَ المُزَيِّنِ مِن كِتابِ أَلفِ لَيلَةٍ وَلَيلَةٍ

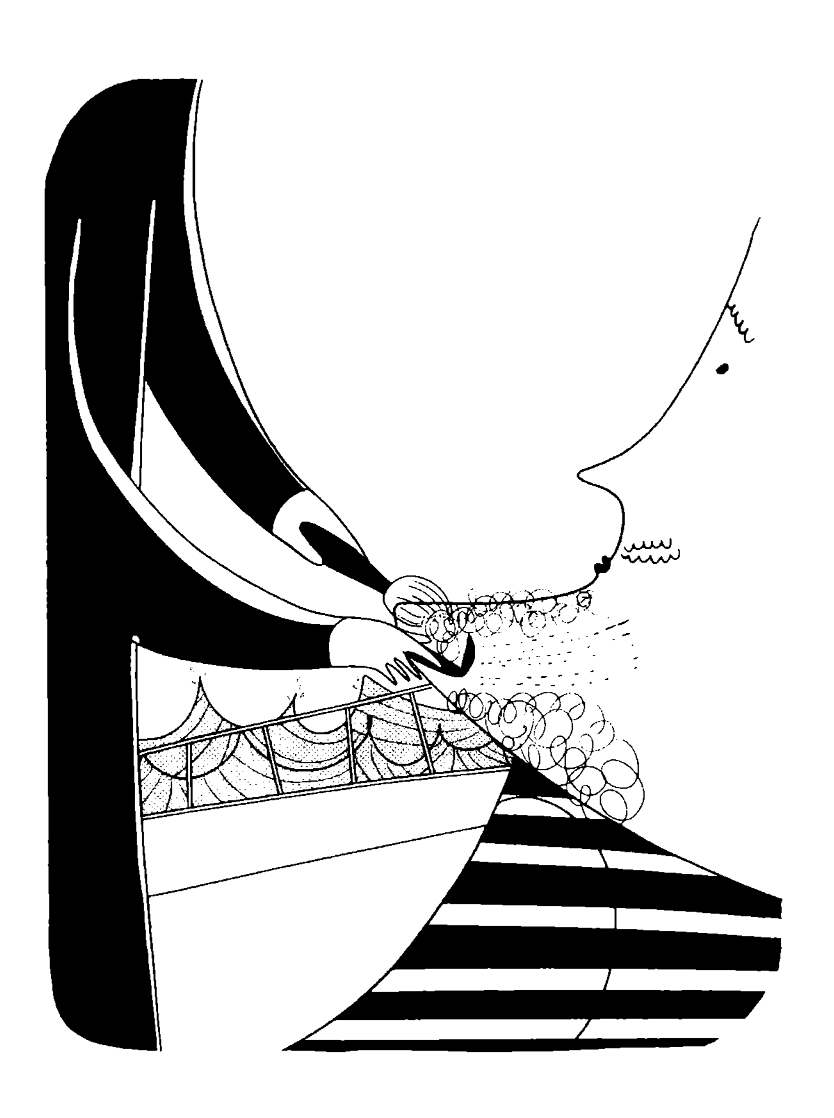
1

كانَ حَلّاقٌ يُدعى أَبوصيرَ، يَعيشُ في مَدينَةِ الإسكَندَرِيَّةِ. إنَّهُ شابٌّ وَسيمٌ يَفيضُ عافِيَةً، وَيَتَمَتَّعُ بِخُلُقٍ حَسَنٍ جَذّابٍ. المالُ القَليلُ الَّذي يَكسِبُهُ مِن مِهنَتِهِ، بِالكادِ يَكفيهِ لِلعَيشِ، وَعَلى الرَّغمِ مِن ذلِكَ فَهوَ دائِمُ البَشاشَةِ. نَهارًا يَجولُ في المَدينَةِ بَحثًا عَن زَبائِنَ، وَلَيلًا يَعودُ إلى كوخِهِ المَبنِيِّ مِن أَلواحٍ خَشَبِيَّةٍ عَتيقَةٍ نَخَرَها السّوسُ.

كانَ لِأَبوصيرَ جارٌ شابٌّ يُدعى أَبوقيرَ، يُمارِسُ مِهنَةَ الصِّباغَةِ. لكِنَّهُ عَكسُهُ، سَيِّئُ الخُلُقِ وافِرُ العُيوبِ، لا يُحِبُّ العَمَلَ، بَل يُمضي مُعظَمَ وَقتِهِ وَهوَ يَلعَبُ النَّردَ. قَلَّما أَحَبَّهُ جيرانُهُ، وَحَتّى أَصدِقاؤُهُ فَقَدِ ابتَعَدوا عَنهُ شَيئًا فَشَيئًا، بِحَيثُ إِنَّهُ كانَ يَعيشُ في عُزلَةٍ، وَكَأَنَّهُ مُصابٌ بِالطّاعونِ. وَحدَهُ أَبوصيرُ ثابَرَ عَلى زِيارَتِهِ لِلاستِعلامِ عَن صِحَّتِهِ.

كانَتِ الحَياةُ في الإِسكَندَرِيَّةِ تَسوءُ، فَالعَمَلُ يَشِحُّ، وَمُنتَجاتُ السّوقِ تَرتَفِعُ أَسعارُها أَكثَرَ فَأَكثَرَ. وَلِعَجزِهِما عَنِ التَّحَمُّلِ، قَرَّرَ الرَّجُلانِ ذاتَ يَومٍ مُغادَرَةَ المَدينَةِ بَحثًا عَن مُستَقبَلٍ أَفضَلَ، تَحتَ سَمَواتٍ أُخرى. وَفي صَباحِ اليَومِ التّالي، استَقَلّا مَركَبًا شِراعِيًّا كانَ عَلى وَشكِ الإِبحارِ؛ فَقالَ الصَّبّاغُ:

– أَبوصيرُ، لَقَد أَنفَقْنا كُلَّ ما كُنّا نَملِكُهُ كَي نَدفَعَ



مَصاريفَ هذِهِ الرِّحلَةِ البَحرِيَّةِ. لَم نَعُدْ نَملِكُ دينارًا واحِدًا. كَيفَ لَنا أَن نَعيشَ؟

- لا تَقلَقْ، المُسافِرونَ عَلى المَركَبِ يَحتاجونَ أَيضًا إلى الحِلاقَةِ. سَأَعمَلُ، وَسَنَتَقاسَمُ ثِمارَ جُهدي.

ما إن تَناهى إلى الأَسماعِ أَنَّ حَلّاقًا كانَ عَلى مَتنِ المَركَبِ، حَتّى أَقبَلَ الجَميعُ إلَيهِ يَطلُبونَ الحِلاقَةَ. لِلحالِ، حَلَّ أَبوصيرُ عُدَّتَهُ وَشَرَعَ يَعمَلُ. في غُضونِ ذلِكَ، تَمَدَّدَ أَبوقيرُ عَلى سَطحِ المَركَبِ، وَسُرعانَ ما غَطَّ في النَّومِ.

كانَ الظَّلامُ قَد حَلَّ عِندَما فَتَحَ عَينَيهِ. وَكانَ رَفيقُهُ أَبوصيرُ يَقِفُ أَمامَهُ، وَيَداهُ تَحمِلانِ خُبزًا وَثِمارًا.

- إنهَضْ يا رَفيقي، وَتَعالَ نَتَناوَلُ الطَّعامَ مَعًا.

- مِن أَينَ لَكَ كُلُّ هذِهِ المُؤَنِ؟

- لَقَدِ اشتَرَيْتُها مِن طَبّاخِ المَركَبِ. سَيَكونُ لَدَينا ما نَغتَذي بِهِ طَوالَ الرِّحلَةِ.

جَلَسَ الرَّفيقانِ في جِهَةِ المَركَبِ الخَلفِيَّةِ، وَتَناوَلا العَشاءَ بِشَهِيَّةٍ.

طَوالَ المُدَّةِ الَّتي استَغرَقَتها الرِّحلَةُ، لَم يَحظَ الحَلّاقُ بِدَقيقَةٍ واحِدَةً لِنَفسِهِ. كانَ يُمضي أيّامَهُ واقِفًا عَلى ساقَيهِ، يَستَعمِلُ الموسى وَالمِقَصَّ بِفَنٍّ مُتَناهٍ. وَمَساءً يَلتَقي رَفيقَهُ مُجَدَّدًا لِتَناوُلِ وَجبَةٍ خَفيفَةٍ، ثُمَّ يَستَسلِمُ لِنَومٍ يَستَحِقُّهُ جِدًّا.

2

بَعدَ بِضعَةِ أَسابيعَ، دَخَلَ المَركَبُ مَرفَأً، فَتَرَجَّلَ مِنهُ الرُّكّابُ. ما كادَ الرَّفيقانِ يَنزِلانِ حَتّى تَوَقَّفا عِندَ أَوَّلِ فُندُقٍ وَجَداهُ، وَحَجَزا فيهِ غُرفَةً بِسَريرَينِ. نَظَرًا لِلإرهاقِ الَّذي كانَ أَبوصيرُ يَشعُرُ بِهِ إثرَ عَمَلِهِ في البَحرِ، فَلَم يَكُنْ يَطلُبُ سِوى النَّومِ، وَهذا ما سارَعَ إلَيهِ. لكِنَّهُ عِندَما استَيقَظَ، كانَت دَهشَتُهُ كَبيرَةً، إذِ اكتَشَفَ أَنَّ رَفيقَهُ قَدِ اختَفى مُستَولِيًا عَلى كُلِّ المالِ

المُتَبَقّي لِلرِّحلَةِ، فَقالَ في نَفسِهِ:

«لَم أُفَكِّرْ مُطلَقًا في أَنَّهُ سَيُقدِمُ عَلى ذلِكَ، بَعدَ كُلِّ ما فَعَلْتُهُ لَهُ.»

ثُمَّ خَفَضَ رَأسَهُ وهَمَسَ بِهذِهِ الكَلِماتِ:

«فَليُسامِحْهُ اللّهُ!»

في ذلِكَ الوَقتِ، كانَ السّارِقُ يَتَمَشّى في أَزِقَّةِ وَسَطِ المَدينَةِ، حَيثُ أَجمَلُ مَتاجِرِ الحِرَفِيِّينَ. وَسطَ زَحمَةِ الشُّراةِ وَالمُتَسَكِّعينَ، اكتَشَفَ مُجَوهَراتٍ فاخِرَةً وَأَعمالًا فَنِّيَّةً ذاتَ تَنَوُّعٍ مُذهِلٍ. لكِنَّهُ عِندَما زارَ سوقَ النَّسّاجينَ، لاحَظَ شَيئًا فاجَأَهُ: الأَقمِشَةُ في الواجِهاتِ كانَت إمّا زَرقاءَ أَو بَيضاءَ لا غَيرَ.

وَهوَ يَقتَرِبُ مِنَ البائِعِ، أَخرَجَ مِنديلًا مِن جَيبِهِ وَسَأَلَهُ:

– هَل يُمكِنُكَ أَن تَصبِغَ لي هذا بِاللَّونِ الأَحمَرِ؟

نَظَرَ الرَّجُلُ إِلَيهِ مُستَغرِبًا وَأَجابَ:

– يَبدو جَلِيًّا يا سَيِّدي العَزيزَ أَنَّكَ لَسْتَ مِن هُنا. عِندَنا، لا يُمكِنُ أَن تَكونَ الأَقمِشَةُ إلّا زَرقاءَ أَو بَيضاءَ.

– لكِن، هُناكَ العَديدُ مِنَ الأَلوانِ الجَميلَةِ! لِمَ لا تُصبَغُ الأَقمِشَةُ بِالأَصفَرِ أَوِ الأَخضَرِ مَثَلًا؟

– لِأَنَّ هذا ما يَقتَضيهِ التَّقليدُ. أَجابَ الرَّجُلُ بِنَبرَةٍ جازِمَةٍ.

مِن دونِ أَن يَطرَحَ الـمَزيدَ مِنَ الأَسئِلَةِ، استَأذَنَ أَبوقيرُ البائِعَ بِالِانصِرافِ، وَاستَعلَمَ عَن مَكانِ إقامَةِ السُّلطانِ، وَرَكَضَ مُباشَرَةً نَحوَ قَصرِهِ، عَلى أَمَلِ أَن يُكَلِّمَهُ.

وَنَظَرًا إلى ما كانَ السُّلطانُ يَتَمَتَّعُ بِهِ مِن لُطفٍ، فَقَد وافَقَ عَلى استِقبالِهِ.

لِلحالِ، وَهوَ يَمثُلُ أَمامَهُ، عَرَّفَ أَبوقيرُ بِنَفسِهِ وَبِمِهنَتِهِ، وَكَشَفَ عَنِ الأَسبابِ الَّتي دَفَعَتهُ إلى مُغادَرَةِ مَسقَطِ

رَأسِهِ، وَوَضَعَ جَلالَتَهُ في صورَةِ زِيارَتِهِ القَصيرَةِ إلى النَّسّاجِ، قَبلَ مَجيئِهِ إلَيهِ بِقَليلٍ. ثُمَّ أَكَّدَ لَهُ أَنَّهُ يَستَطيعُ أَن يَصبِغَ أَقمِشَةً بِأَلوانٍ مُتَنَوِّعَةٍ. لَدى سَماعِهِ هذا، بَدا السُّلطانُ مُتَفاجِئًا جِدًّا، وَلكِن مُهتَمًّا أَيضًا، فَسَأَلَهُ:

- هَل أَنتَ قادِرٌ عَلى أَن تُبَرهِنَ ما تَفَضَّلْتَ بِهِ؟

- أَنا قادِرٌ، رَدَّ أَبوقيرُ بِبَساطَةٍ.

عِندَئِذٍ، سَلَّمَ المَلِكُ ضَيفَهُ شَراشِفَ ناصِعَةَ البَياضِ، وَسَأَلَهُ أَن يَعودَ حالَمَا يُنجِزُ عَمَلَهُ.

3

فِي صَباحِ اليَومِ التّالي، عادَ أَبوقيرُ إلى القَصرِ، وَيَداهُ تَحمِلانِ شَراشِفَ زاهِيَةَ الأَلوانِ، أَثارَت إعجابَ السُّلطانِ كَثيرًا، فَقَدَّمَ إلَيهِ مُكافَأَةً، كيسًا مَملوءًا بِالذَّهَبِ.

بَعدَ ذلِكَ بِقَليلٍ، وَبِفَضلِ هذا الذَّهَبِ، فَتَحَ أَبوقيرُ مَصبَغَةً كَبيرَةً في إحدى ضَواحي المَدينَةِ.

إنتَشَرَتِ الأَخبارُ سَريعًا في تِلكَ المَدينَةِ، وَسَمِعَ مُعظَمُ السُّكّانِ بِمَآثِرِ الصَّبّاغِ، فَسارَعوا إلَيهِ وَمَعَهُمُ

الأَقمِشَةُ كُلُّها الَّتي أَرادوا رُؤيَتَها مُلَوَّنَةً. لَم تَمُرَّ بِضعَةُ أَشهُرٍ حَتّى أَصبَحَ أَبوقيرُ رَجُلًا ثَرِيًّا.

في ذلِكَ الوَقتِ، كانَ أَبوصيرُ مِن جِهَتِهِ يَعيشُ في التَّقتيرِ. فَالحَلّاقونَ في المَدينَةِ كُثُرٌ، وَبِالكادِ كانَ يَستَطيعُ أَن يَجِدَ مِنَ الزَّبائِنِ ما يَكفي كَي يَكسِبَ عَيشَهُ.

ذاتَ يَومٍ، وَفيما كانَ يَبحَثُ عَن عَمَلٍ في جِوارِ القَصرِ، رَأى أَبوقيرَ واقِفًا أَمامَ مَتجَرِهِ الجَميلِ. وَعِندَما قَرَأَ اسمَ رَفيقِهِ عَلى اللّافِتَةِ، أَدرَكَ أَنَّهُ أَصبَحَ رَجُلًا مُهِمًّا. كانَت قَد مَرَّت أَشهُرٌ طَويلَةٌ على سَرِقَةِ الفُندُقِ، وَكانَ الحَلّاقُ قَد سامَحَ صَديقَهُ مُنذُ زَمَنٍ بَعيدٍ. حينَما أَقبَلَ إِلَيهِ مُشَرِّعًا ذِراعَيهِ باسِمًا، لَم يَكُنْ ذلِكَ إِلّا لِتَهنِئَتِهِ عَلى حُسنِ نَجاحِهِ. وَلكِنَّ الصَّبّاغَ ما إِن رَأى رَفيقَهُ القَديمَ يَقتَرِبُ، حَتّى اعتَقَدَ أَنَّهُ جاءَ يَطلُبُ العَدالَةَ. فَاستَدارَ نَحوَ مُوَظَّفيهِ وَصاحَ بِهِم قائِلًا:

Twitter: @ketab_n

- خَلِّصوني مِن هذا الرَّجُلِ، إنَّهُ سارِقٌ!

إنهالَ المُوَظَّفونَ عَلى أَبوصيرَ بِالضَّربِ، وَرَمَوهُ في زُقاقٍ قَفرٍ بَينَ حَيٍّ وَمَيتٍ. لِحُسنِ الحَظِّ، ساعَدَهُ عابِرٌ كَريمٌ، حَمَلَتهُ طيبَتُهُ عَلى اصطِحابِهِ إلى فُندُقِهِ، حَيثُ لازَمَ الفِراشَ لِعِدَّةِ أَيّامٍ حَتّى التَأَمَت جِراحُهُ.

خِلالَ إقامَتِهِ في الفُندُقِ، جَمَعَت بَينَهُ وَبينَ المالِكِ صَداقَةٌ. وَبِدافِعِ الشَّفَقَةِ عَلى حالِ صَديقِهِ المُزرِيَةِ، استَعانَ مالِكُ الفُندُقِ بِعَلاقاتِهِ كُلِّها كَي يُستَخدَمَ أَبوصيرُ حَلّاقًا في بَلاطِ السُّلطانِ. وَهذا ما حَصَلَ، فَبَعدَ وَقتٍ قَصيرٍ، اتَّخَذَ أَبوصيرُ مَقَرًّا لَهُ في إحدى غُرَفِ القَصرِ. وَانصَرَفَ إلى العَمَلِ بِحَماسَةٍ كَسابِقِ عَهدِهِ.

سَريعًا، ذاعَ صيتُهُ في أَصقاعِ المَدينَةِ كُلِّها.

لكِنَّ أَبوقيرَ عِندَما عَلِمَ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذي أَرادَ أَن يَقتُلَهُ كانَ لا يَزالُ حَيًّا، تَوَجَّهَ إلى السُّلطانِ وَقالَ لَهُ:



- جَلالَتَكَ، أَعرِفُ مِن مَصادِرَ مَوثوقَةٍ أَنَّ حَلّاقَكَ الجَديدَ هُوَ عَدُوٌّ مُكَلَّفٌ بِقَطعِ رقَبَتِكَ!

كانَ السُّلطانُ يَثِقُ بِالصَّبّاغِ إلى حَدٍّ أَنَّهُ لَم يَتَكَبَّدْ عَناءَ التَّحَقُّقِ مِن أَقوالِهِ. فَاستَدعى قائِدَ حَرَسِهِ وَقالَ لَهُ:

- هذِهِ اللَّيلَةَ، سَوفَ تُخفي الحَلّاقَ بِرَميِهِ في النَّهرِ.

مَساءً، كانَ أَبوصيرُ في غُرفَتِهِ، عِندَما فاجَأَهُ قائِدُ الحَرَسِ، وَصَرَعَهُ بِسُرعَةِ السَّهمِ، وَقَيَّدَهُ، وَأَقحَمَهُ في كيسٍ، ثُمَّ نَقَلَهُ إلى زَورَقٍ. عِندَما خَرَجَ السُّلطانُ إلى شُرفَتِهِ لِيُشرِفَ عَلى تَنفيذِ الحُكمِ، صاحَ بِقائِدِ حَرَسِهِ:

- أَثقِلِ الكيسَ بِحَجَرٍ ضَخمٍ وَارمِهِ هُناكَ!

لكِنَّهُ، وَهوَ يَمُدُّ ذِراعَهُ كَي يُحَدِّدَ المَكانَ، انزَلَقَ خاتَمُ الياقوتِ مِن سَبّابَتِهِ، وَسَقَطَ في الماءِ، فَصاحَ قائِلًا:

- خاتَمي! أَعيدوهُ إلَيَّ!

إندَفَعَ الخُدّامُ عَلى الفَورِ إلى النَّهرِ، وَقَلَبوا الوَحلَ

في القَعرِ مِرارًا، لَعَلَّهُم يَجِدونَ الحُليَةَ. لكِن، مِن دونِ جَدوى.

تَوَقَّفَت أَعمالُ البَحثِ مَعَ حُلولِ اللَّيلِ.

4

خِلالَ عَمَلِيَّةِ البَحثِ عَن خاتَمِ السُّلطانِ، كانَ القائِدُ قَدِ ابتَعَدَ وَحِملَهُ الثَّقيلَ في الزَّورَقِ. وَعِندَما وَصَلَ إلى المَكانِ الَّذي أَشارَ إلَيهِ المَلِكُ، تَوَقَّفَ فَجأَةً مُضطَرِبًا، وَقالَ في نَفسِهِ:

«ما السّوءُ الَّذي ارتَكَبَهُ هذا الحَلّاقُ المِسكينُ، كَي يَستَحِقَّ المَوتَ؟ لَطالَما كانَ طَيِّبًا وَخَدومًا. أَكثَرَ مِن مَرَّةٍ حَلَقَ شَعري مَجّانًا. هَل يُمكِنُ أَن يَكونَ السُّلطانُ مُخطِئًا؟»

عِندَئذٍ رَمى في النَّهرِ الحَجَرَ الضَّخمَ الَّذي كانَ عَلَيهِ أَن يُثقِلَ بِهِ الحِملَ.

فيما كانَ المَلِكُ يُشرِفُ عَلى البَحثِ عَنِ الخاتَمِ مِن عَلى شُرفَتِهِ، سَمِعَ الجَلَبَةَ الَّتي أَحدَثَها الحَجَرُ لَدى اصطِدامِهِ بِصَفحَةِ المِياهِ، فَاعتَقَدَ أَنَّ العَمَلِيَّةَ قَد تَمَّت بِنَجاحٍ.

لِكِنَّ شَيئًا مِن هذا لَم يَحصُلْ.

إصطَحَبَ قائِدُ الحَرَسِ أَبوصيرَ إلى قَريَةٍ نائِيَةٍ، حَيثُ أَعادَ إِلَيهِ حُرِّيَّتَهُ، وَجَعَلَهُ يَعِدُ بِأَلّا يَعودَ إلى المَدينَةِ، خَشيَةَ أَن يَنتَقِمَ السُّلطانُ مِنهُما مَعًا.

في الأَيّامِ التّالِيَةِ، أَنشَأَ الحَلّاقُ لِنَفسِهِ كوخًا صَغيرًا عَلى ضِفَّةِ النَّهرِ، وَبَدَأَ يُمارِسُ مِهنَتَهُ في القَريَةِ. مَرَّتِ الأَسابيعُ وَالأَشهُرُ مِن دونِ أَن يُفَكِّرَ لَحظَةً في العَودَةِ إلى المَدينَةِ.

ذاتَ يَومٍ، وَهوَ يَجولُ في السّوقِ، شاهَدَ أَبوصيرُ عَلى بَسطَةِ سَمّاكٍ سَمَكَةَ زُنْجورٍ طازَجَةً لِلغايَةِ، فَقَرَّرَ شِراءَها استِثنائِيًّا. لَدى عَودَتِهِ إلى كوخِهِ، مَعَ اقتِرابِ مَوعِدِ الغَداءِ، أَمسَكَ سِكّينًا كَبيرًا وَشَقَّ السَّمَكَةَ مِنَ الطّولِ، وَكَم كانَت دَهشَتُهُ كَبيرَةً حينَ وَجَدَ في أَحشاءِ الحَيَوانِ خاتَمًا مُزَيَّنًا بِأَجمَلِ حَجَرِ ياقوتٍ، فَقالَ في نَفسِهِ:

«خاتَمُ السُّلطانِ! كَثيرًا ما رَأَيْتُهُ في سَبّابَتِهِ. وَلكِن، ماذا يَفعَلُ داخِلَ السَّمَكَةِ؟»

كانَ أَبوصيرُ يَجهَلُ طَبعًا أَنَّهُ انزَلَقَ مِن إصبَعِ المَلِكِ وَسَقَطَ في النَّهرِ، فَقَد كانَ داخِلَ الكيسِ عِندَما وَقَعَ الحادِثُ.

«ماذا عَلَيَّ أَن أَفعَلَ؟ هذا الخاتَمُ لَهُ، وَلا يَحِقُّ لي الاحتِفاظُ بِهِ.»

بَعدَ لَحظَةٍ مِنَ التَّفكيرِ، وَضَعَ الخاتَمَ في جَيبِهِ، وَخَرَجَ



مِن كوخِهِ، فَسَلَكَ طَريقَ الـمَدينَةِ. وَلكِنَّهُ تَوَقَّفَ فَجأَةً.

«السُّلطانُ يَظُنُّ أَنَّني مَيتٌ. إذا رَآني، فَقَد يَنتَقِمُ مِن قائِدِ الحَرَسِ الَّذي كانَ عَلَيهِ أَن يُعدِمَني، عَدا عَنِ الوَعدِ الَّذي قَطَعْتُهُ لِقائِدِ الحَرَسِ بِعَدَمِ العَودَةِ إلى الـمَدينَةِ.»

ثُمَّ راوَدَتهُ الأَفكارُ الأَكثَرُ تَعارُضًا.

«يُمكِنُني رُبَّما، أَن أُسَلِّمَ الخاتَمَ إلى أَحَدِ سُكّانِ القَريَةِ، لَعَلَّهُ يَذهَبُ فَيُسَلِّمُهُ بِنَفسِهِ إلى السُّلطانِ.»

كادَت هذِهِ الفِكرَةُ أَن تُقنِعَهُ لَحظَةً، لكِنَّهُ غَيَّرَ رَأيَهُ مُجَدَّدًا، وَقالَ مُستَأنِفًا سَيرَهُ:

«لا! هذا الشَّخصُ يُمكِنُهُ أَن يَحتَفِظَ بِهِ. عَلَيَّ أَن أُسَلِّمَهُ إلى السُّلطانِ يَدًا بِيَدٍ. تَبًّا لِلمَخاطِرِ! النَّزاهَةُ قَبلَ كُلِّ شَيءٍ!»

بَعدَ بِضعِ ساعاتٍ، مَثُلَ أَبوصيرُ أَمامَ السُّلطانِ، الَّذي ظَنَّ عِندَما رَآهُ أَنَّ عِفريتًا قَد أَتى يُعَذِّبُهُ. لكِنَّ الحَلّاقَ

سُرعانَ ما هَدَّأَهُ وَهوَ يُخبِرُهُ القِصَّةَ الَّتي صِرْنا نَعرِفُها. وَمَعَ نِهايَةِ سَردِهِ، سَلَّمَ الخاتَمَ إلى السُّلطانِ، فَنَظَرَ إلَيهِ مِن دونِ أَن يَنبِسَ بِبِنتِ شَفَةٍ، ثُمَّ تَفَوَّهَ بِهذهِ الكَلِماتِ:

– صَديقي، أَنا مُعجَبٌ بِشَجاعَتِكَ وَنَزاهَتِكَ. لَقَد شَكَكْتُ بِكَ، وَحَكَمْتُ عَلَيكَ مِن دونِ أَدنى دَليلٍ. أَرجوكَ أَن تَقبَلَ اعتِذاري.

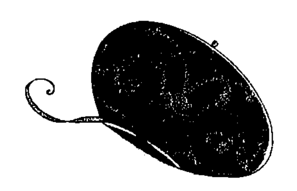
بِكُلِّ تَواضُعٍ، انحَنى أَبوصيرُ أَمامَ السُّلطانِ، الّذي تابَعَ قائِلًا:

– لكِنَّ هذا الحَقيرَ أَبوقيرَ قَدِ استَغَلَّ ثِقَتي بِهِ، وَلِهذا سَيَدفَعُ الثَّمَنَ!

وَسُرعانَ ما قَرَنَ القَولَ بِالفِعلِ، فَرُمِيَ بِالصَّبّاغِ في السِّجنِ، حَيثُ أَمضى بَقِيَّةَ حَياتِهِ.

أَمّا أَبوصيرُ فَقَد أَقامَ في القَصرِ، وَأَصبَحَ صَديقَ السُّلطانِ الحَميمَ.

يَضحَكُ جَيِّدًا مَن يَضحَكُ آخِرًا



عَن مُغامَرَةٍ لِجِحا (مِنَ التُّراثِ الشَّفَهِيِّ)

1

أَصبَحَ جِحا عَجوزًا نَحيلًا أَبيَضَ الشَّعرِ. وَهُوَ الَّذي كانَ قَديمًا يَجوبُ الطُّرُقاتِ عَلى حِمارِهِ المُخلِصِ، باتَ الآنَ يَنامُ عَلى فِراشِهِ المَصنوعِ مِنَ القَشِّ، شاحِبَ السِّحنَةِ، هَزيلًا، بِانتِظارِ أَن تَحينَ ساعَتُهُ الأَخيرَةُ. مارَسَ جِحا دَورِيًّا مِهَنَ العالَمِ كُلَّها، فَكانَ حَمّالًا، وَجَزّارًا، وَبائِعَ سَمَكٍ، وَبائِعًا جَوّالًا، وَحَتّى إِنَّهُ عَمِلَ مُهَرِّجًا في بَلاطِ الخَليفَةِ هارونَ الرَّشيدِ. مَنَحَتهُ الحَياةُ حِصَّتَهُ مِنَ الحُزنِ،

وَلكِنَّها في المُقابِلِ لَم تَضِنَّ عَلَيهِ بِما فيها مِن فَرَحٍ، لِأَنَّهُ ضَحِكَ كَثيرًا، وَعَرَفَ خُصوصًا أَن يُضحِكَ الآخَرينَ.

أَصبَحَ الفَقرُ وَالانعِزالُ رَفيقَيهِ الدّائِمَينِ. فَزَوجَتُهُ المُخلِصَةُ فاطِمَةُ ماتَت مُنذُ زَمَنٍ بَعيدٍ، كَما ماتَ صَديقُهُ، الخَليفَةُ الطَّيِّبُ هارونُ الرَّشيدُ. وَلَو لَم يَكُنْ بَعضُ الجيرانِ المُحسِنينَ يَأتونَهُ بِما يَغتَذي بِهِ وَيَتَدَفَّأُ، لَكانَ قَدِ انضَمَّ إلى عَزيزَيهِ الغالِيَينِ.

ذاتَ مَساءٍ، وَفيما قَلبُهُ مُفعَمٌ بِالحُزنِ، شَعَرَ بِحاجَةٍ إلى الصَّلاةِ، فَقالَ وَهوَ مُمَدَّدٌ عَلى سَريرِهِ:

– رَبّي، لَقَد جاهَدْتُ في حَياتي كُلِّها كَعَبدٍ، مِن دونِ أَن أَنجَحَ في تَحقيقِ الثَّراءِ. لَم يَبقَ لي مِنَ الحَياةِ إلّا القَليلُ، وَأَوَدُّ حَقًّا أَن أُغادِرَ العالَمَ شامِخَ الرَّأسِ. هَل تَستَطيعونَ، لَو سَمَحْتُم رَبّي، بِطيبَتِكُمُ العَظيمَةِ، أَن تَمنَحوني بَعضَ قِطَعٍ جَميلَةٍ مِنَ الذَّهَبِ؟... هذا الذَّهَبُ، بِالكادِ سَيَتَسَنّى

لِيَ الوَقتُ كَي أَتَمَتَّعَ بِهِ، فَنِهايَتي باتَت قَريبَةً جِدًّا. كَما تَرَونَ، إِنَّني آمُلُ فَقَط أَن يُقالَ إِنَّ جِحا لَم يَمُتْ فَقيرًا!

ثُمَّ أَلقى بِرَأسِهِ عَلى الوِسادَةِ وَغَفا.

لكِن، مِن غَرائِبِ الصُّدَفِ أَنَّ أَحَدَهُم كانَ يَمُرُّ مِن هُناكَ، فَسَمِعَ كُلَّ شَيءٍ. إِنَّهُ عابِدُ التّاجِرُ الَّذي كانَ جِحا قَد سَخِرَ مِنهُ أَكثَرَ مِن مَرَّةٍ. فَبَعدَ أَن أَنهى جِحا صَلاتَهُ، قالَ عابِدٌ في نَفسِهِ:

«لَقَد جَعَلْتَني أُضحوكَةً في ما مَضى، ها قَد حانَ دَوري كَي أَنتَقِمَ!»

لِلحالِ، رَكَضَ إِلى بَيتِهِ، وَعادَ مَعَ صُرَّةٍ مَملوءَةٍ بِقِطَعٍ مِنَ الذَّهَبِ.

«إِنتَظِرْ، فَسَتَرى في الغَدِ كَم أَنَّ النّاسَ سَيَسخَرونَ مِنكَ!»

ثُمَّ رَمى الصُّرَّةَ في بَيتِ الرَّجُلِ العَجوزِ، وَمَضى.



2

فِي صَباحِ اليَومِ التّالي، وَهوَ يَصحو مِنَ النَّومِ، وَجَدَ جِحا الصُّرَّةَ عَلى الأَرضِ. وَبِشَيءٍ مِنَ الدَّهشَةِ، أَمسَكَها، وَوَضَعَها عَلى سَريرِهِ، وَفَتَحَها بِحَذَرٍ. مَعَ اكتِشافِهِ ما تَحتَوي عَلَيهِ، رَكَعَ.

– آهِ، رَبّي! شُكرًا! شُكرًا!

عَلى الفَورِ، بَدأَ يَعُدُّ القِطَعَ، وَما إن أَنهى العَدَّ حَتّى صاحَ:

«غَنِيٌّ! أَنا غَنِيٌّ! أَخيرًا!»

وَلَم يَتَمَكَّنْ مِنَ الامتِناعِ عَنِ الهَمسِ قائِلًا:

«أَستَطيعُ الآنَ أَن أَموتَ بِسَلامٍ.»

وَفيما كانَ يُعيدُ الذَّهَبَ إلى الكيسِ، فُتِحَ البابُ فَجأَةً، فَدَخَلَ عابِدٌ وَتاجِرٌ آخَرُ كانَ يَتبَعُهُ اسمُهُ سَليمٌ. قالَ عابِدٌ:

– صَباحَ الخَيرِ، جِحا. جِئْناكَ بِزِيارَةٍ، فَقَد بَلَغَنا أَنَّكَ وَحيدٌ وَتَحتاجُ إلى أَنيسٍ.

مُتَفاجِئًا بِهذَينِ الرَّجُلَينِ اللَّذَينِ لَم يَرَهُما مُنذُ زَمَنٍ بَعيدٍ، استَقبَلَهُما العَجوزُ بِلِياقَةٍ.

– أَهلًا بِصَديقَيَّ، تَفَضَّلا.

وَهوَ يَرى القِطَعَ مُبَعثَرَةً عَلى السَّريرِ، سَأَلَ عابِدٌ بِخُبثٍ:

– جِحا، وَلكِن، مِن أَينَ لَكَ هذا الذَّهَبُ؟

– إنَّهُ القَديرُ مَن وَهَبَني إيّاهُ، رَدَّ العَجوزُ بِفَخرٍ.

– اللّهُ قَدَّمَ لَكَ كُلَّ هذِهِ القِطَعِ؟ سَأَلَ عابِدٌ.

– نَعَم، اللّهُ شَخصِيًّا، لِأَنَّهُ رَحومٌ، أَجابَ جِحا بِجِدٍّ.

– وَلكِن، هذا غَيرُ مَعقولٍ! صَرَخَ سَليمٌ.

– إنَّها مُعجِزَةٌ حَقًّا! أَضافَ عابِدٌ.

– صَحيحٌ. إنَّها مُعجِزَةٌ، لكِنَّ اللّهَ هُوَ كُلِّيُّ القُدرَةِ أَيضًا، أَكَّدَ العَجوزُ.

– قُلْ لي، لِماذا مَنَحَكَ اللّهُ هَدِيَّةً كَهذِهِ؟ سَأَلَ عابِدٌ.

وَهوَ يَفرَغُ مِن إعادَةِ القِطَعِ إلى الصُّرَّةِ، أَخبَرَ جِحا صَديقَيهِ بِالصَّلاةِ الَّتي كانَ قَد تَلاها مَساءً. وَما كادَ يُنهي كَلامَهُ حَتّى انفَجَرا ضَحِكًا.

– وَلكِن، ماذا هُناكَ؟ سَأَلَ في الحالِ.

أَجابَ عابِدٌ:

– لَم أَعرِفْكَ ساذَجًا إلى حَدِّ أَن تَعتَقِدَ أَنَّ اللّهَ يَكتَرِثُ

لِمَوارِدِكَ المالِيَّةِ. هذِهِ الصُّرَّةُ، أَنا مَن رَماها لَكَ عَبرَ نافِذَةِ غُرفَتِكَ فيما كُنْتَ نائِمًا. كُنْتُ أَمُرُّ البارِحَةَ مِن أَمامِ بَيتِكَ، حينَ فاجَأَتني صَلاتُكَ. لَقَد وَجَدْتُها مُضحِكَةً لِلغايَةِ، حَتّى إِنَّني رَغِبْتُ بِالِاستِمتاعِ قَليلًا. هذا قَد تَمَّ. وَالآنَ كَفانا مُزاحًا، أَعِدْ إِلَيَّ ذَهَبي.

– هذا الذَّهَبُ لي! قالَ جِحا وَهوَ يَضُمُّ الصُّرَّةَ إِلى صَدرِهِ.

– آمُرُكَ بِأَن تُعيدَهُ إِلَيَّ! صَرَخَ عابِدٌ وَقَدِ احمَرَّ غَضَبًا.

وَهوَ يَنتَزِعُ الصُّرَّةَ، مِنَ العَجوزِ، فوجِئَ بِمُقاوَمَتِهِ.

أَمّا سَليمٌ فَتَدَخَّلَ قائِلًا:

–إِهدَأْ! لا يَحِقُّ لَكَ أَن تُعَنِّفَ عَجوزًا!

أَرخى عابِدٌ قَبضَتَهُ وَصاحَ قائِلًا:

– ما دامَ الأَمرُ هكَذا، سَأَتَقَدَّمُ عَلى الفَورِ بِشَكوى أَمامَ القاضي! هَيّا انهَضْ، أَيُّها العَجوزُ الأَخبَلُ!

سَنَذهَبُ نحنُ الاثنَينِ إلى المَحكَمَةِ!

فَقالَ سَليمٌ:

– لَم أَعهَدْكَ شَرِسًا إلى هذا الحَدِّ، لَو كُنْتُ أَعرِفُ أَنَّ هذا الشِّجارَ سَيَقَعُ، لَما أَتَيْتُ مَعَكَ مُطلَقًا. تَدَبَّرِ الأَمرَ بِمُفرَدِكَ. أَنتَظِرُكَ خارِجًا.

وَخَرَجَ فَورًا مِن دونِ انتِظارٍ.

غَيرَ أَنَّ تَدَخُّلَ سَليمٍ، كانَ قَد مَنَحَ جِحا الوَقتَ لِلتَّفكيرِ، فَقالَ في نَفسِهِ:

«لا شَكَّ في أَنَّ عابِدًا مُحِقٌّ، فَالرَّبُّ لا يُكافِئُ أَحَدًا بِطَريقَةٍ تافِهَةٍ كَهذِهِ. كَم كُنْتُ غَبِيًّا إذ وَقَعْتُ فَريسَةَ الخِداعِ؟ هذا الثَّعلَبُ العَجوزُ يُريدُ مِن دونِ شَكٍّ أَن يَنتَقِمَ مِنّي بِسَبَبِ المَقالِبِ الَّتي أَوقَعْتُهُ فيها في الماضي. وَالآنَ، ماذا سَيَحصُلُ إن عَرَفَتِ المَدينَةُ كُلُّها القِصَّةَ؟ عَلَيَّ أَن أَجِدَ الوَسيلَةَ كَي أَجعَلَهُ هُوَ أُضحوكَةً. وَيَضحَكُ

جَيِّدًا مَن يَضحَكُ آخِرًا!»

– إذًا، ماذا تَنتَظِرُ كَي تَتبَعَني؟ صَرَخَ عابِدٌ.

– لا أَستَطيعُ، أَنا أَضعَفُ مِن أَن أَذهَبَ إِلى المَحكَمَةِ سَيرًا عَلى القَدَمَينِ.

– بَغلَتي في الخارِجِ. يُمكِنُكَ أَن تَمتَطِيَها.

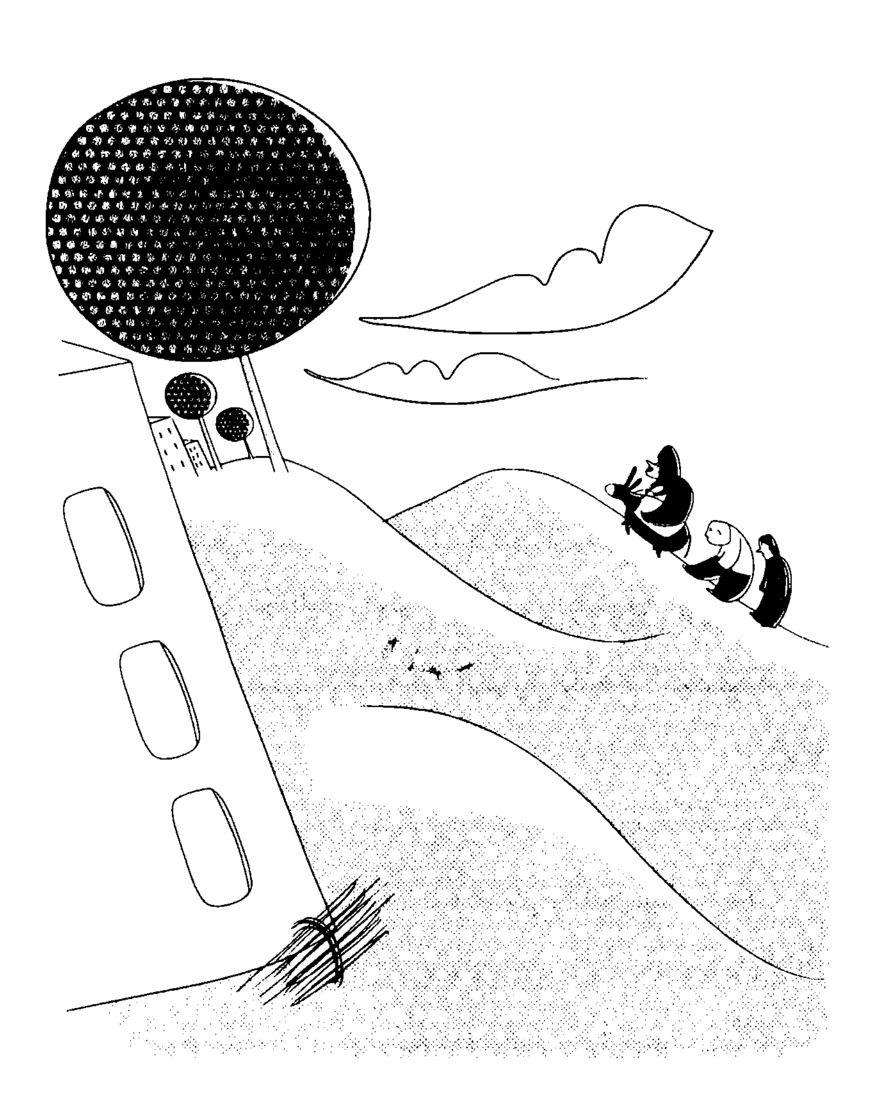
لكِنَّ العَجوزَ ظَلَّ واقِفًا مِن دونِ حِراكٍ.

– ماذا هُناكَ أَيضًا؟ سَأَلَ عابِدٌ.

– أَخجَلُ مِنَ المُثولِ أَمامَ القاضي، الَّذي أَعرِفُهُ جَيِّدًا، بِمَظهَري الحَقيرِ هذا. لَم يَرَني مُنذُ زَمَنٍ بَعيدٍ. بِمَ سَيُفَكِّرُ إذا ما لَمَحَ ثِيابيَ العَتيقَةَ المُمَزَّقَةَ؟ فَضلًا عَن أَنَّ هذا سَيَكونُ قِلَّةَ احتِرامٍ لَهُ!

– لابَأسَ، قالَ عابِدٌ.

وَخَلَعَ السُّترَةَ الَّتي كانَ يَرتَديها، وَوَضَعَها عَلى كَتِفَي العَجوزِ.



- سَأُعيرُكَ حَتّى قَلَنسُوَتي الجَميلَةَ، أَضافَ وَهوَ يَضَعُ قَلَنسُوَتَهُ عَلى رَأسِ جِحا.

- أَعِرْني أَيضًا وِشاحَكَ الحَريرِيَّ الجَميلَ وَعَصاكَ، لَو سَمَحْتَ.

- خُذْ ما تُريدُ، وَلكِن أَسرِعْ في الخُروجِ مِنَ السَّريرِ!

رَدَّ عابِدٌ بَعدَ أَن عيلَ صَبرُهُ.

نَهَضَ جِحا أَخيرًا، وَانَضَمَّ الرَّجُلانِ إلى سَليمٍ في الخارِجِ. هُناكَ، ساعَدَ التّاجِرانِ العَجوزَ عَلى امتِطاءِ البَغلَةِ، وَسَلَكَ الثَّلاثَةُ مَعًا الطَّريقَ بِاتِّجاهِ المَحكَمَةِ.

3

ما كادوا يَصِلونَ إلى أَمامِ المَحكَمَةِ حَتّى خَرَجَ القاضي مِن مَكتَبِهِ حالَما رَأى جِحا، فَضَمَّهُ بَينَ ذِراعَيهِ قائِلًا:

– جِحا، صَديقي العَزيزَ! أَيُّ هَواءٍ عَليلٍ يَأتي بِكَ؟

– هَواءٌ سَيِّئٌ جِدًّا. إنَّ عابِدًا، الَّذي تَراهُ هُنا، يَدَّعي أَنَّني سَرَقْتُ لَهُ صُرَّةً مَلأى بِقِطَعٍ مِنَ الذَّهَبِ.

– أَنتَ، سارِقٌ؟! وَفقَ مَعرِفَتي بِكَ، يَصعُبُ عَلَيَّ

تَصديقُ ذلِكَ.

– لكِنَّها الحَقيقَةُ عَينُها. إسمَحْ لي بِأَن أُخبِرَكَ القِصَّةَ كُلَّها. قالَ عابِدٌ.

تَوَجَّهَ الرِّجالُ الأَربَعَةُ إلى غُرفَةِ الاِستِماعِ. وَهُناكَ، فيما كانَ يَلهو بِسُبحَتِهِ، استَمَعَ القاضي بِانتِباهٍ إلى قِصَّةِ التّاجِرِ، وَمَعَ نِهايَتِها، صَرَّحَ قائِلًا:

– عَزيزي عابِدًا، كَما تَعلَمُ، لا شَيءَ مُستَحيلٌ عِندَ اللّهِ، بِما في ذلِكَ تَقديمُ صُرَّةٍ مَلأى بِالذَّهَبِ إلى عَجوزٍ.

– سَيِّدي القاضِيَ، أَنا لا أُنكِرُ قُدرَةَ اللّهِ العَظيمَةَ، وَلكِن، هَل سَبَقَ أَن رأَيْناهُ يَمنَحُ نِعمَةً مُماثِلَةً؟ إنَّني، أُكَرِّرُ مَرَّةً أُخرى، أَنا، وَأَنا وَحدي، مَن رَمى لِجِحا الصُّرَّةَ عَبرَ نافِذَةِ بَيتِهِ. ما كانَ ذلِكَ إلّا خُدعَةً!

– في هذِهِ الحالَةِ، اسمَحْ لي بِأَن أَتَوَجَّهَ إلَيكَ بِالنَّقدِ ذاتِهِ: هَل سَبَقَ أَن رَأَيْنا رَجُلًا يَستَعمِلُ ذَهَبَهُ مِن أَجلِ

تَسلِيَةٍ مُماثِلَةٍ؟

– لا سِيَّما أَنَّ الـمُدَّعِيَ يَبدو غَيرَ قادِرٍ عَلى تَقديمِ أَيِّ بُرهانٍ يَدعَمُ رِوايَتَهُ لِلوَقائِعِ. قالَ جِحا مُنتَهِزًا الفُرصَةَ.

فَكَّرَ القاضي لَحظَةً، ثُمَّ استَدارَ نَحوَ عابِدٍ يَسأَلُهُ:

– هَل رَآكَ أَحَدٌ تَرمي الصُّرَّةَ في بَيتِ الـمُتَّهَمِ؟

رَمَقَ عابِدٌ إذّاكَ سَليمًا بِنَظرَةِ تَوَسُّلٍ، لكِنَّ هذا بَدَلَ أَن يَكذِبَ مُحاوِلًا مُساعَدَةَ رَفيقِهِ، خَفَضَ عَينَيهِ، ثُمَّ نَهَضَ وَغادَرَ القاعَةَ. بَدا عابِدٌ فَجأَةً مُحبَطًا.

– إذًا، هَل تَستَطيعُ أَن تُحضِرَ شاهِدًا؟ كَرَّرَ القاضي.

– كَلّا، لَقَد كُنْتُ وَحدي آنَذاكَ. قالَ التّاجِرُ هامِسًا.

– حَسَنًا، في هذِهِ الحالَةِ، تُعتَبَرُ شَكواكَ باطِلَةً.

4

أَثناءَ مُغادَرَتِهِ الـمَحكَمَةَ، التَفَتَ عابِدٌ إلى جِحا، وَعَيناهُ غارِقَتانِ بِالدُّموعِ، وَقالَ لَهُ:

- كَي تُوافِقَ عَلى الـمَجيءِ إلى هُنا، لَقَد أَعَرْتُكَ سُتْرَتي وَوِشاحي وَعَصاي. هَل تَقولُ الآنَ إنَّها لَكَ؟

- عَزيزي عابِدًا، لَسْتُ رَجُلًا يَستَولي عَلى ما لَيسَ لَهُ. فَهذِهِ السُّترَةُ لَطالَمَا كانَت لي، وَكَذلِكَ هذا الوِشاحُ، وَهذِهِ العَصا.

– وَالقَلَنسُوَةُ؟ سَأَلَ التّاجِرُ بِصَوتٍ مُرتَجِفٍ.

– القَلَنسُوَةُ؟ لَدَيكَ مِنَ الوَقاحَةِ ما يَكفي كَي تَسأَلَني سُؤالًا كَهذا، في حينِ أَنَّني أَنا مَن صَنَعَها!

– كَيفَ؟ القَلَنسُوَةُ أَيضًا! قالَ التّاجِرُ الَّذي كادَ أَن يَختَنِق.

– هَل تَسمَعُ هذا، سَيِّدي القاضِيَ؟ قالَ جِحا.

فَصَرَخَ عابِدٌ:

– لا تُصغِ إلَيهِ! آهٍ! فَقَط لَو كانَ سَليمٌ لا يَزالُ هُنا، لَأَخبَرَكَ إلى أَيِّ حَدٍّ هذا الرَّجُلُ كاذِبٌ! لِأَنَّني أُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّ السُّترَةَ، وَالوِشاحَ، وَالعَصا، وَالقَلَنسُوَةَ هِيَ لي وَأَنَّ...

قاطَعَ جِحا:

– وَأَنا، الَّذي شَرَفُهُ هُوَ أَعظَمُ ثَروَةٍ، أَقولُ لَكَ إنَّها لي مُنذُ زَمَنٍ بَعيدٍ جِدًّا بِحَسَبِ ما أَذكُرُ!

صَمَتَ الرَّجُلانِ وَهُما يُشاهِدانِ وَجهَ القاضي الَّذي



بَدا فَجأَةً جِدِّيًّا لِلغايَةِ، فقالَ:

– عابِدُ، لَقَد طالَت هذِهِ المَهزَلَةُ بِما يَكفي. جِحا رَجُلٌ نَزيهٌ، أَنا مَسؤولٌ عَن كَلامي، وَأَفرُضُ عَلَيكَ أَن تُعامِلَهُ بِاحتِرامٍ.

وَهوَ يَسمَعُ هذا، بَدا التّاجِرُ مُنهارًا. لَم يُضِفْ شَيئًا، بَل خَرَجَ مِنَ المَحكَمَةِ بِهُدوءٍ.

في النَّهارِ ذاتِهِ، كانَتِ المَدينَةُ كُلُّها تَستَنكِرُ الأَحداثَ المُزعِجَةَ الَّتي عاشَها الرَّجُلُ الفَقيرُ، وَكُلٌّ يَعِظُ عَلى طَريقَتِهِ، فَبَعضُهُم قالوا:

– لَقَد أَحسَنَ العَمَلَ! إِنَّهُ لَعارٌ أَن نُحاوِلَ تَجريدَ عَجوزٍ مُشرِفٍ عَلى المَوتِ مِمّا يَملِكُهُ!

وَآخَرونَ قالوا:

– اللّهُ أَكبَرُ، يَجِبُ أَلّا نَشُكَّ في عَدلِهِ.

وَحدَهُ جِحا كانَ صامِتًا، مُمَدَّدًا عَلى فِراشِهِ، يَستَمتِعُ

بِنَصرِهِ. لكِنَّهُ بَعدَ بِضعَةِ أَيّامٍ، شَعَرَ بِأَنَّ لَحَظاتِهِ الأَخيرَةَ قَد حانَت، فَنادى أَحَدَ جيرانِهِ وَقالَ لَهُ:

- لَو سَمَحْتَ، اذهَبْ إلى عابِدٍ وَقُلْ لَهُ إنَّني أَرغَبُ في التَّحَدُّثِ إلَيهِ في الحالِ.

ذَهَبَ الجارُ إلى بَيتِ التّاجِرِ وَأَعلَمَهُ بِرَغبَةِ جِحا، غيرَ أَنَّ التّاجِرَ رَفَضَ الِاستِجابَةَ، فَأَصَرَّ الجارُ عَلى إقناعِهِ قائِلًا:

- لَم يَبقَ لِلرَّجُلِ المِسكينِ إلّا بِضعُ ساعاتٍ، أَيُمكِنُكَ أَن تَرفُضَ القِيامَ بِمَعروفٍ لِمُحتَضِرٍ؟

إثرَ هذِهِ الكَلِماتِ، تَأَثَّرَ عابِدٌ. وَبَعدَ دَقائِقَ، وَجَدَ نَفسَهُ عِندَ فِراشِ العَجوزِ، الَّذي قالَ بِصَوتٍ ضَعيفٍ:

- صَديقي، لَقَد جَعَلْتُكَ تَأتي لِأَنَّ عَلَيَّ أَن أُريحَ ضَميري. إستَعِدْ قَلَنسُوَتَكَ، وَسُترَتَكَ، وَوِشاحَكَ، وَعصاكَ وَكُلَّ ذَهَبِكَ. فَهيَ إلَيكَ تَعودُ.

عاجِزًا عَنِ التِقاطِ دُموعِهِ، قالَ التّاجِرُ هامِسًا:

– سامِحْني لِأَنَّني وَدَدْتُ لَكَ الأَذى.

– لَقَد سامَحْتُكَ مُنذُ زَمَنٍ طَويلٍ، أَجابَ العَجوزُ.

في اللَّحظَةِ التّالِيَةِ، فارَقَ جِحا الحَياةَ بِسَلامٍ مَعَ نَفسِهِ.

الفِهرِس

في هذِهِ الحِكاياتِ الشَّعبيَّةِ الآتِيَةِ مِنَ الشَّرقِ، لَيسَ نادِرًا أَن تُقَرِّرَ عَفاريتُ غَريبَةٌ مَصيرَ أَحياءٍ، وَلا أَن تَبدَأَ حَيَواناتٌ وَديعَةٌ بِالفَلسَفَةِ كَأَسيادِها... والحَياةُ مُذهِلَةٌ لِلغايَةِ أَحيانًا، بِحَيثُ لا يَبدو عَجيبًا أَن تَرى رَجُلًا فَقيرًا يُصبِحُ أَفضَلَ صَديقٍ لِرَجُلٍ نافِذٍ.

جحا شَخصِيَّةٌ بارِزَةٌ في عَدَدٍ كَبيرٍ مِن هذِهِ المُغامَراتِ، وَهوَ يُشبِهُ هذا العالَمَ المُحَيِّرَ: إِنَّهُ شُجاعٌ وَجَبانٌ، ماكِرٌ وَساذَجٌ، مُحتالٌ وَنَزيهٌ، يُسَيِّرُ حَياتَهُ كَيفَما تَيَسَّرَ، وَيَبدو دائِمًا صَعبَ الفَهمِ؛ لكِنَّهُ عَلى الرَّغمِ مِن ذلِكَ، لا يَنسى مُطلَقًا أَن يَبقى إِنسانِيًّا.

هذِهِ الحِكاياتُ المُستَوحاةُ مِن قِصَصِ نَصرِ الدّينِ خوجَة، وَأَلفِ لَيلَةٍ وَلَيلَةٍ، وَكَليلَةَ وَدِمنَةَ، تُقَدِّمُ لِلقُرّاءِ الصِّغارِ، بِلُغَةٍ سَلِسَةٍ وَسَهلَةٍ، ميراثَ حِكمَةٍ عَصرِيَّةٍ أَبَدًا.


ISBN 978-9953-31-466-2
9 789953 314662

www.samirediteur.com